مشاهد
يوم القيامة

للشيخ
محمد متولي الشعراوي

مقدمة الناشر

الحمد للَّه رب العالمين. وأزكى الصلاة وأشرف التّسليم على سيّدنا محمّد النبيّ الأمين. وعلى إخوانه النبيّين. وآله الطّيّبين وأصحابه الغرّ الميامين. ومن سار على منهاجهم واقتفى آثارهم إلى يوم الدّين. وبعد.

فإن العلم بحر زخَّار، وقاموس هدَّار. كلّما ازددت منه تضلُّعاً زادك عطشاً وتطلُّعاً. فهو رحبة دياره، ذليلة أسواره، جليلة وجليّة أنواره.

فلا يتمنّع إلا على الجاهلين. ولا يتطاول إلَّا دون المعرضين وأثمةِ المغرضين. فمن رام نيله بإخلاص عزَّ واقتبس. وعلى ذرى المجد وَهَام الفراق افترش وجلس. بيد أن من قصد منه فقد خاب وانتكس وطاش سهمه فارتكس.

وها نحن نُجِدُّ التَّسيار في سبيل هذا الطلب، عسانا أن نبلغ النُّجعة والأرب، نقدم للأمة نفائس الأدب

وذخائر المسلمين والعرب، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يسدّد خطانا على النّهج الرّشيد والسّبيل السّديد.

أما بعد...

فإنّ بين يديك أيها القارئ العزيز سفراً نفيساً نزجيه إليك ليكون أثيراً، فتضحي لديه مرهوناً وأسيراً، كيف لا وهو لنابغة علّامة من علماء المسلمين وعلم من أعلام المحدثين ألَا وهو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فتآليفه ومجلّداته هي لا شك للخاصة من أهل العلم والأدب وأما العامّة فتجد فيها منارة تنير درب المتطلعين إلى المعرفة والهِداية.

وبما أن المكتبة العصرية للطباعة والنشر أخذت على نفسها عهداً أن تكون مهنتها رسالة وضّاءة فإنها تقدم اليوم لقرّائها هذا الكتاب لعله يُشبِع لهفة الباحثين ويروي غليل الصائدين.

والحمد للّه رب العالمين

الناشر

مشاهد
يوم القيامة

يوم القيامة

لما كانت أحداث القيامة غيباً عنا ، فإنَّ اللَّه سبحانه وتعالى شاء برحمته أن يعطينا من الأحداث الحسية ما يقرب لنا معانى الغيب ، وذلك رحمة بالعقول البشرية من أن تضل أو تفتن ، وإذا كان هذا هو أحد المعانى الَّتي نريد أن نبينها عن يوم القيامة ، فإنَّ هناك معنى آخر هو أننا جميعاً محتاجون إلى التذكرة بأمور الآخرة ، حتَّى نعرف يقيناً أن هذه الحياة الَّتي نحياها لا تحمل مفهوم الحياة الَّتي يريدها اللَّه سبحانه لعباده الطائعين ، واللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

حينما نقرأ هذه الآية الكريمة ، يجب أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، ويبرز سؤال هنا إلى الذهن ، ألسنا أحياء

فعلاً ؟ أليس القرآن يخاطب الأحياء مصداقاً لقوله تعالى في سورة يس : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس] .

كيف يكون القرآن قد نزل للأحياء ، بينما هو منهج يدعو إلى حياة أخرى ؟ نقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا اختباراً للآخرة ؛ لأنَّ اللَّه الَّذي كرم الإنسان ، ونفخ فيه من روحه ، وسخر له ما في الأرض جميعاً .

بل الكون كله بقواه الهائلة الَّتي تفوق قدرة الإنسان ملايين المرات ، والَّتي هي قادرة على أن تهلكه في لحظة واحدة ، هذا الكون كله بتلك القوى الهائلة الموجودة فيه مسخر لخدمة الإنسان ، الشمس تعطى أشعتها له ولا تستطيع أن تعصى ، والهواء يعطيه التنفس ولا يستطيع أن يرفض ، والبحار تعطيه المياه ولا تستطيع أن تمتنع ، والأرض تعطيه كل خيراتها فلا هي تقدر أن تمنع الزرع ، ولا أن تمنع الثمار منه ، وهكذا نرى أن كل ما في الكون مسخر لخدمة

الإنسان ، الإنسان على إطلاقه ، المؤمن والكافر . . المطيع والعاصى .

اللَّه تعالى الَّذي سخر للإنسان كل هذا جعل الدنيا دار اختبار ، فالدنيا كلها ليست غاية الإنسان المؤمن الحقيقية ، ولكنها فترة زمنية محدودة ، كاختبار أو امتحان للحياة الأخرى الحقيقية الَّتي أعدها اللَّه للإنسان العابد له ، الشاكر لأنعمه ، المنفذ لمنهجه بحب وطواعية ، ولذلك نجد في القرآن الكريم أكثر من آية تلفتنا إلى ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

الآخرة خير وأبقى

اللَّه سبحانه وتعالى جعل الحياة الحقيقية للإنسان في الآخرة ، لأنَّ الحياة الدنيا ؛ دار أغيار يعانى فيها الإنسان ويكابد ، وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة ، فأنت اليوم قوي وغداً ضعيف ، وأنت اليوم غنى وغداً فقير ، وأنت اليوم في صحة جيدة وغداً مريض ، وأنت اليوم حى وغداً ميت ، لا شيء يستقر على حال ، فكل شيء في الدنيا يتغير ويتبدل .

ولكن لماذا جعل اللَّه سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار ؟ ذلك حتَّى يلفتنا سبحانه إلى أن كل شيء منه هو سبحانه ، فنحن لا نملك شيئاً بذاتنا ، ولو كانت الصحة مثلاً من أنفسنا ما مرض منا أحدٌ أبداً ، ولو كان الغنى من عقولنا ما أصابنا الفقر أبداً ، وذلك حتَّى نتذكر دائماً نعمة اللَّه تعالى وقدرته فلا نعصيه ، ولكي نعرف أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الوهاب وهو الفعال

لما يريد ، فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا ، ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم ، فنقول كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] .

إنما يريد اللَّه سبحانه أن يجعلنا متبعين لمنهجه ملتزمين لأمره ونهيه ، ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة اللَّه ، وعجزنا وقدرة اللَّه ، وكلما غرتنا مظاهر الدنيا تغير الحال من قوة إلى مرض ، ومن قدرة إلى عجز ، وفي ذلك عظة ، علنا نفيق ونتذكر .

هكذا جعل اللَّه سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا ، فلو أنه ليس عالم أغيار لبعُد الناس عن منهج اللَّه ، لو رأوا في أنفسهم قوة لا تضعف وقدرة لا تعجز ، ومالاً لا يفنى ولا يذهب لغرَّتهم قوتهم ، فأفسدوا في الأرض وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم ، وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن اللَّه سبحانه وتعالى ، فما دامت القوة لا تتغير ولا تتبدل فينسى الإنسان ذكر ربه ، ويطغى ، ويستغنى ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق] . ولقد

شاءت رحمة الحق سبحانه وتعالى أن يوجد في الكون ما يذكرنا دائماً بأننا لا نفعل شيئاً إلا بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى ، فنحن نرى بأعيننا ، ولكن اللَّه شاء أن يخلق من له عينان ولا يبصر ، لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها ، ولكنها تبصر بقدرة اللَّه تعالى ، كما أننا نمشى بأقدامنا ، ولكن اللَّه شاء أن يوجِد من له قدمان ولا يستطيع المشى ، ونسمع بآذاننا ، ولكن شاء اللَّه أن يخلق من له أذنان ولا يسمع .

تلك أمثلة قليلة نذكرها مما وضعه اللَّه تعالى في الكون ، وشاء اللَّه سبحانه وتعالى تفضلاً منه ورحمة أن يعوض هؤلاء الناس عما فقدوا من ميزات بميزات أخرى ، فوجد من هو أعمى ولكنه من أعلم الناس ، ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين ، ووجد من لا تحمله قدماه وحكم أقوى دولة في العالم من فوق كرسى متحرك . إلى آخر هذه الأمثلة .

إذن . . فعالم الأغيار ، رحمة بالإنسان ، حتَّى لا يطغى ويبتعد عن منهج اللَّه ، كما أن تسخير اللَّه لقوى هائلة في الكون لخدمة الإنسان هو رحمة من اللَّه بنا ،

حتَّى نتذكر كل يوم ، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار ، ونتنفس الهواء ، أن هذه القوى كلها مسخَّرة لنا بقدرة اللَّه تعالى .

مصير العلماء
غير المؤمنين يوم القيامة

اللَّه سبحانه وتعالى في الآخرة يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين ولكي يكون ذلك عدلاً ، فلا بدَّ أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا يكون فيها قادراً على المعصية ولكنه يطيع ، ويكون قادراً على الكفر - والعياذ باللَّه - ولكنه يؤمن ، ويكون قادراً على الإفساد في الأرض ، ولكنه يُصلح ، كل هذا حبّاً للَّه وليس لأي هدف آخر ، فالإنسان يصلى طاعة للَّه ، ويتصدق لوجه اللَّه ، ويعمل الصالحات إرضاء للَّه ، فمن فعل ذلك بإيمان حقيقى مخلصاً للَّه تعالى تقبل اللَّه منه ، ومن فعل كل هذا وليس في قلبه إيمان ؛ وليرائي به الناس لم يتقبل اللَّه تعالى منه .

وهذه النقطة لا بدَّ أن نلتفت إليها جيداً ، لأنَّها أخذت جدلاً كثيراً بين الناس .

فالناس تتساءل عن أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها ، ذلك الَّذي اكتشف البنسلين ، وذلك الَّذي كشف اللَّه على يديه دواء لداء كان بلا شفاء حتَّى جاء هو وهداه اللَّه لاكتشاف هذا الدواء ، هؤلاء الذين قدموا للإنسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعاً ، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين باللَّه تعالى ؛ هل يخلدون في النار ؟

بعض الناس يزعم أنهم سيدخلون الجنة لما قدموا من خير للبشر !! ولكن الصحيح أنه : ما دام لم يكن اللَّه تعالى في بالهم فلن يدخلوا الجنة ؛ لماذا ؟ لأنك إذا عملت عملاً فإنك تأخذ أجره ممن عملت من أجله ، ذلك قانون أزلى ، فلا يمكن مثلاً أن تبني عمارة لإنسان وتطلب أجرك من إنسان آخر أو تكون عاملاً في مصنع ، ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك [١] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .
=

واللَّه تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ؛ لماذا ؟ لأنَّه لا يحتاج إلى أحد من مخلوقاته ، فاللَّه قد خلق الكون كله بما فيه من نعم وأرزاق ومخلوقات بكمال قدرته سبحانه وتعالى ولم يستعن في ذلك بأحد ، ولا احتاج في يوم من الأيام إلى أي مخلوق ، أو مجموعة من المخلوقات ليستكمل بها كمال قدرته تبارك وتعالى وتنزه . فهو غنى عن خلقه جميعاً ، غنى عن أي شريك فإذا قصدت بالعمل وجه اللَّه وحده ، تقبله منك وجزاك عليه ، وإذا أشركت مع اللَّه أحداً ترك كل ما عملت لمن أشركت به ، لأنَّ الحق سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله [١] .

لذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى في

= وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

(١) أخرج مسلم [٢٩٨٥/ ٤٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قال اللَّه تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » .

آيات كثيرة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٤] .

ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أن هناك من يعمل عملاً صالحاً وهو غير مؤمن ، وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر ، أو أحب أن يقال : إنه عمل وعمل .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف] .

وحتَّى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الإنسان ، فكان لا بدَّ أن يُخلق الإنسان مختاراً ؛ مختاراً في ماذا ؟ في أن يتبع منهج اللَّه أو يعصيه ، وبعض الناس يحسب - وهماً - أن اختيار الإنسان في الحياة اختيار مطلق ، وتسمع كثيراً من الناس يقول لك : أنا حر . . هكذا على إطلاقها !!

نقول له : لست حراً إلا فيما يؤهلك للحياة

الآخرة ، أي : يؤهلك للجنة أو النار .

إذن . . فاختيار الإنسان هنا اختيار اختبار ، وليس اختياراً على إطلاقه وإلا لو كان اختيار الإنسان على إطلاقه لاستطاع أن يقى نفسه المرض فعندما يأتي إليه المرض يختار الصحة ، أو عندما تأتي إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه ، بل يكون له اختيار في جسده مثلاً ، فيختار متى ينبض قلبه ومتى يتوقف ، ومتى تتنفس رئتيه ومتى لا تتنفس ، ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل ، وما هي العضلات الَّتي تتحرك عندما يقف وعندما يمشى وعندما يجرى ، وألوف من الأشياء الأخرى .

ولكن الإنسان يقوم ويجلس ، ويمشى ويقف ويجرى ويبطئ الخطى وهو لا يعرف أي العضلات تتحرك ، وأيتها لا تتحرك ، كل أحداث الدنيا الَّتي تقع على الإنسان لا اختيار له فيها ، فنجد إنساناً حريصاً على أن يركب الطائرة أو القطار ، مع أن هذه الطائرة أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة في حادث سيقع ، ولا أحد يختار الموت ، ولكنك تجد أولئك الذين كتب

عليهم الموت في حادث طائرة مثلاً هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة ، بل إن بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا أو ذاك ليحصل على مقعد في الطائرة الَّتي تحمل له الموت .

إذن . . فاختيار الإنسان في الحياة محدود بالمنهج ، وهذه رحمة كبرى من رحمة اللَّه تعالى على خلقه ، حتَّى نتذكر أننا لسنا أحراراً بإرادتنا ، ولكننا أحرار بمشيئة اللَّه سبحانه ، وفي الشيء الَّذي أراد اللَّه سبحانه وتعالى لنا أن يملكنا حق الاختيار فيه ، فلا يجعلنا حق الاختيار هذا أن نبتعد عن اللَّه ، بل علينا أن نعرف مهمتنا في الحياة ، والَّتي هي في اتباع منهج اللَّه تعالى وعبادته سبحانه وحده لا شريك له ، فلا يخدعنا هذا فنظن أننا أخذنا هذ الاختيار بقوتنا نحن ، فإذا ما عرفنا ذلك اتجهنا إلى اللَّه سبحانه وتعالى باختيارنا ، فإذا قال سبحانه : إفعل نفعل ، وإذا قال : لا تفعل لا نفعل .

إذن . . فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار ، وبما فيه من حرية الاختيار ، يجب أن يذكرنا باللَّه دائماً ؛ لنعرف أن هذا كله هو من قدرة اللَّه

سبحانه وتعالى وليس بقدراتنا ، فلا نعصى ولا نتجبر ، ولكن نخشع ونخضع لنفوز بالحياة الحقيقية الَّتي أعدها لنا اللَّه سبحانه ، ونفوز برضاه ورحمته ولنعلم يقيناً أننا مهما نعلو في الأرض ، ومهما نبلغ من أسباب القوة فنحن في قدرة اللَّه لا نخرج عنها أبداً ، ونحن في قبضة اللَّه لا نستطيع أن نفلت منها ، وأن وعد اللَّه حق ، وأن كل ما في الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير ، ومن اختيار ممنوح لنا من اللَّه سبحانه ، ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا . . . إلخ .

ولكن على الرغم من كل هذا هل اتعظ الإنسان ؟ هل أحس يقيناً أنه سيلقى اللَّه في الآخرة ؟ وهل عمل من أجل الحصول على النعيم الَّذي أعده اللَّه له في الجنة ؟ الجواب عن ذلك : لا . إلا من رحم اللَّه ، على الرغم أن كل لحظة في حياتنا الدنيا تذكرنا بالآخرة ، والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب ، ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا ، ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه اللَّه سبحانه وتعالى ، ولكن الناس نسوا يوم

الحساب وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم يرتكبون المعاصى ويعتدون على الحُرمات ، ويأخذون المال الحرام ، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم ، ومكتوب عليهم .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

اليقين بالآخرة ركن الإيمان

الإيمان بيوم القيامة هو الأساس في العمل الصالح ، ففي أول سورة البقرة يوضح اللَّه سبحانه وتعالي مطلوبات الإيمان فيقول : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة] .

وهكذا نرى أن من مطلوبات الإيمان أن يكون هناك يقين بالآخرة ؛ لماذا ؟ لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة ، وما دمت تظن أنك لن تلقى اللَّه سبحانه فماذا تخشى ؟ وممن تخاف ؟

إن أساس الإيمان في الدنيا هو اليقين بالآخرة ، ذلك الَّذي يَحُول بينك وبين كل المعاصى ، وبينك وبين كل

المظالم ، فالناس تستهين بالمعاصى لأنَّ الجزاء مستور عنها ، لو رأينا العذاب لما اقترب واحد منا من المعاصى ، لو رأى السارق ما سَيَفْعَل به يوم القيامة لما اقترب من المال الحرام ، ولو رأى الزانى جهنم ولو لحظة واحدة لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغرينه ، ولو رأى أي إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها ، ولكن لأنَّ الجزاء مخفى عنا ولأننا إما أن ننسى ما ذكره اللَّه سبحانه وتعالى لنا عن الآخرة ، أو تستهوينا المعصية ، أو يستذلنا الشيطان ، فنقع فيما حُرم علينا .

وأساس السلوك البشرى في الدنيا هو اليقين باليوم الآخر ، ذلك اليقين الَّذي يرفع يد القوي عن أن يغتصب حق ضعيف لأنَّه يعلم أنه ملاقٍ اللَّه يوم القيامة ويمنع كل قادر متجبر عن أن يأكل أموال الناس بالباطل ، فإذا تذكرت الآخرة وأنت تهم بأي معصية ، فإنك ستتجنبها على الفور خوفاً من عقاب اللَّه تعالى .

معنى الساعة

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة ، فإنه لا بدَّ من حديث عن معنى الساعة ، ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة ، ومتى تقع ؟ إلى آخر ما نسمعه من أسئلة وتنبؤات بين عدد من الناس ، فمنهم من يقول : إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيجمد كل شيء .

والبعض الآخر يقول : إن الأرض ستقترب من الشمس ، فيحترق فيها كل شيء .

والبعض الثالث يقول : إن الأكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة .

كل هذا وغيره تنبؤات تقوم على الظن ، وليس على اليقين فحتَّى الآن لا أحد يعرف يقيناً ماذا سيحدث ، ولا متى سيحدث ، نقول لهؤلاء جميعاً : لقد شغلتم أنفسكم بشيء علمه لا ينفع وجهله لا يضر ،

فلو افترضنا أن عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جداً هي فترة عمرى فقبل أن أُولد لا علاقة لى بالحياة على الأرض ، وبعد أن أموت لا علاقة لى بالحياة على الأرض .

إذن . . فموعد القيامة بالنسبة لى هو موعد انتهاء حياتى على الأرض ، فمن مات قامت قيامته ؛ لماذا ؟ لأنَّه يرى كل شيء ، يرى ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، ويرى مقعده من الجنة ، أو مقعده من النار ، وأشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا . كذلك بالنسبة له تنتهي فترة الاختبار الَّتي هي المدخل إلى يوم القيامة لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة : ١٣] .

لماذا قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ ؟

لأنَّ الَّذي مات كافراً ، علم يقيناً أن لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة ولأنَّه رأى وعاين ساعة الموت حقيقة عمله ، فهو يعرف أن لا أمل له في دخول الجنة ، وأن لا أمل له في النجاة من النار ، وهذا

اليأس يصبح يأساً يقينيّاً ، فالإنسان يعرف مصيره ساعة يحتضر ، تلك اللحظات الَّتي هي بين الموت والحياة ، يشاهد فيها الإنسان كل ما أُخفي عنه ، تلك اللحظة الَّتي تغادر فيها الروح الجسد ، الَّتي هي عند سكرة الموت ، تلك اللحظات الَّتي تخمد فيها بشرية الإنسان ، وتنتهي فيها حياة الاستعلاء وحياة الكِبَر ، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها .

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد أعطاه اللَّه أسباب الملك في الدنيا وتجبر وعلا ، تجده ساعة الاحتضار ضعيفاً ذليلاً عاجزاً ، كل مظاهر الاستعلاء ذهبت ، ينظر إليك في مسكنة غريبة ، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله ، ولكن الكل عاجزون ، في هذه اللحظة يأخذ الإنسان مقدمات الغيب ، ويرى ما أخبره اللَّه سبحانه وتعالى عنه ، ولم يكن يصدق به ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

أي : ما كنت تظن أنه لن يقع ، أو تحاول ألا تتذكره ، وألا تعترف بما هو واقع فيه . في هذه اللحظات لا تنفع التوبة ، ولا يجدى الندم ، فعند

سكرة الموت ينقطع عمل الإنسان وتتوقف حياته عند هذه المرحلة من الدنيا ، وينتقل إلى عالم آخر ، في برزخ إلى يوم يبعثه اللَّه تعالى ليوفيه حسابه .

متى الساعة ؟!

عندما سأل اليهود رسول اللَّه ﷺ عن موعد الساعة ، طلب اللَّه من رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

أي أنها غيب وستظل غيباً لا يطَّلع عليه أحد ولا يعرف وقتها أحد ، حتَّى أنه قيل : إن إسرافيل وهو الملك المكلف بأن ينفخ في الصور لكي تقوم الساعة لا يعرف موعدها ، وأنه يقف في حالة استعداد مستمر ، حتَّى إذا أتاه أمر اللَّه قام بالتنفيذ في التو واللحظة ، كما أن الملائكة المقربين لا يعرفون موعد الساعة ، لأنَّ اللَّه اختص نفسه بها ، يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

ومعنى يجليها ، أي : يظهرها ، وهناك الجلوة والخلوة ، الجلوة هي الظهور ، والخلوة هي

الاختفاء ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِوَقْتِهَآ ﴾ هذه لام التوقيت ، تماماً كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ، ومعنى دُلوك الشمس ، أي : أنها تتجاوز نصف السماء .

إذن . . قوله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ ﴾ أي لا تظهر إلا إذا جاء وقتها ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أي أن اللَّه سبحانه وتعالى وحده هو الَّذي سيظهرها ، ولن يعرف بها حتَّى أقرب الملائكة المقربين إلى اللَّه إلا ساعة تظهر ، ثم يقول الحق : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

ما معنى ثقلت ؟ معناها : أن الكتلة أكبر من الطاقة الَّتي تحملها ، فأنت حين تحمل شيئاً أقل من قوة عضلاتك ، يقال : هذا الشيء خفيف ، وعندما تحمل شيئاً مساوياً لقوة عضلاتك يكون هذا الشيء عادياً ، فإذا كان أكبر من قوة عضلاتك يكون ثقيلاً ، ولكن هل الثقل لا يكون إلا في الأمور المادية ؟ أم أنه يكون ثقلاً فكرياً وعقلياً ؟ يعني عندما تعطى طالباً في السنة الأولى بكلية الهندسة تمريناً مقرراً على السنة الرابعة ، يقال لك : هذا التمرين ثقيل على طاقة عقله لا يستطيع

العقل أن يحله ، هذا ثقل فكرى ، وهناك ثقل معنوي مثل الهم ، وهذا أقسى أنواع الثقل ، لأنك يضيق صدرك عن أن تحمله فهو ثقل نفسى ، ولذلك يقال : إنه ليس الثقل ما حمله الظهر ، ولكن الثقل ما ضاق به الصدر .

إذن . . فعندنا ثلاثة أنواع من الثقل : ثقل مادى ، وثقل فكرى ، وثقل نفسى . قيام الساعة أي نوع من هذه الأثقال الثلاثة ؟ إنها الأنواع الثلاثة كلها ، فالساعة ثقيلة مادياً ، وثقيلة معنوياً ، وثقيلة نفسياً ، الثقل المادى هو على الأشياء المادية في الكون ، فالأرض والشجر والجبال وكل ما في هذا الكون مقهور للَّه سبحانه وتعالى ، وهو مقهور على الطاعة ، مسبِّح للَّه في كل وقت ، وعندما ترى هذه الأشياء ذلك الإنسان الَّذي يأخذ خيرها والَّتي تخدمه وهو يعصى اللَّه سبحانه وتعالى ويكفر به ويفسد في كونه ، تتميز هذه الأشياء من الغيظ ، فالأصنام تلعن من يعبدها ، وتتمنى لو أن اللَّه أذِن لها لتفتك به ، والشمس الَّتي تعطى من ضوئها وأشعتها للكافر وتخدمه عملية ثقيلة على نفسها ، وهي تتمنى أن يأذن لها اللَّه بأن تحرق هذا الكافر العاصى

والبحار وهي تخدم الإنسان تتمنى من اللَّه أن يأذن لها أن تغرق الكافر وتمحوه من الوجود جزاء على كفره ، وكذلك كل شيء في الدنيا من الماديات ، هي مسبحة للَّه ، وكلها تتميز غيظاً ، وكلها تتمنى أن يأتي يوم القيامة فيحاسب فيه الكافر على كفره ، ولا يقول أحد : إن المادة ليست لها عاطفة بل المادة لها عاطفة ، وعاطفة راقية وإن كنا لا نفهمها ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] .

إذن . . السماء تبكي ، والأرض تبكي ، ومعنى ذلك أن لهما عاطفة ؛ عاطفة راقية ، ويقال : إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان ، موضع سجوده في الأرض ، وموضع رفع عمله في السماء ، وهكذا نرى أن المادة لها عواطف ، وأنها تكره العاصين ، وتكره الكافرين ، ويثقل عليها أن تكون في خدمتهم ، ولذلك فهي تتعجل ساعة الحساب ، والوقت يمر ثقيلاً عليها ، لأنَّها تريد أن ترى ابن آدم ؛ هذا الَّذي كفر باللَّه وبنعمه

وهو يجازى على كفره ولذلك يروي : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفاً على ابن آدم ؛ فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول البحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الأرض : يا رب ائذن لى أن أبتلع ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول الجبال : يا رب ائذن لى أن أطبق على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك .

فيقول اللَّه تعالى : دعوهم ، دعوهم ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنهم عبادى ، فإنْ تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[(١)] .

أما الثقل المعنوي فهو في السماء ، فالملائكة الذين

(١) روى الإمام أحمد في مسنده [١/ ٤٣] عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض ، يستأذن اللَّه في أن ينفضخ عليهم ، فيكفُّه اللَّه عز وجل » . وضعفه الأرناؤوط في المسند ، وقال : أورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية [٢/ ١٧٦] في قصة طويلة ونسبه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده .
وقوله : « ينفضخ : أي ينفتح ويسيل » .

سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه وبحياته ؛ الذين سخرهم اللَّه لخدمته ؛ والَّذي منهم الحفظة وغيرهم ، هؤلاء يثقل في صدورهم ما يفعله الإنسان من معاص وكفر باللَّه وهم يرون الكافرين يسخرون من المؤمنين يتمنون لو تأتي الساعة لينال هؤلاء جزاءهم ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب ، ولذلك فإنَّ الملائكة يحملون هذا الثقل المعنوي ، وهم يرون الفساد في الأرض ، ويتمنون أن تأتي الساعة ليظهر الحق وينال العاصون والكافرون جزاءهم . والساعة ثقيلة على النفس لأنَّ الناس تخشاها ، فهي ثقيلة على المؤمن الَّذي يستبطئها ويريد أن يصل إلى الثواب وإلى الجنة ، وهي ثقيلة على نفس الكافر لأنَّه يخشى ما سيقابله فيها من عذاب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج] .

صورة مخيفة تلقى الرعب والهلع في النفوس وتكون

ثقيلة نفسيّاً ، خاصة وأنها كما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، أي : أنها تحدث فجأة .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « ولتقُومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ، فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه ، فلا يطعمها »(١) .

وهكذا نرى أن الساعة من هولها ثقيلة ، ثقيلة على الكون ، ثقيلة على الناس ، ثقيلة على الملائكة .

ثم يقول الحق تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٧] . وحفى من الحفاوة ، والحفى هو الَّذي يلح في طلب الأشياء ، فالطالب مثلاً حين يقترب موعد الامتحان ويكون عنده سؤال لا يعرف إجابته ؛ يسأل كل أساتذته ، فهو حفى بالسؤال يلح فيه ليحصل على الإجابة ، وكلها من مادة الحفاء ،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٧١٢١] ، وبنحوه مسلم [٢٩٥٤/ ١٤٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه .

والإنسان في شئونه إما أن يعالجها وهو مستقر في مكان مستريح ، وإما أن ينتقل وراءها من مكان إلى آخر فيقضيها ، فإذا انتقل وراءها من مكان إلى آخر استهلك النعل الَّذي يلبسه ويصبح حافياً ؛ لذلك يقال : « فلان حفى حتَّى وصل إلى هذا الأمر » ، أي : قام بانتقالات كثيرة حتَّى أصبح كالحافى لأنَّ نعله ذاب . ويأمر اللَّه جل جلاله رسوله ﷺ بأن يقول لليهود الذين سألوه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

إذن . . هذا تأكيد بأن اللَّه سبحانه وتعالى قد اختص بها نفسه .

وفي موضع آخر يقول اللَّه جل جلاله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه] .

ما معنى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ؟ ولماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى أخفيها ؟ قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ يعني أنه سبحانه لا يخفيها ، بل يبديها بالتدريج .

إذن . . حتمية قيام الساعة اللَّه يبديها ، ولكن موعد قيام الساعة اللَّه يخفيه .

النفخ
في الصور

النفخ في الصور

يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

نلحظ في هذه الآية أمرين :

الأول : أن اللَّه سبحانه وتعالى استثنى من الصاعقة الَّتي ستحدث في الآخرة فكأن هناك من لن تصيبهم الصاعقة !

الثاني : قُدِّم النظر في هذه الآية على السمع ، وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن الكريم الَّتي قُدِّم فيها النظر على السمع ، فاللَّه سبحانه وتعالى في كل آيات القرآن الَّتي تحدثت عن السمع والبصر كان يأتي بالسمع قبل البصر كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨] . ولكن في هذه الآية وحدها قدَّم سبحانه النظر على السمع .

إن الاستثناء في آية الصاعقة سببه أن هناك من خلق اللَّه تعالى من صعقوا من قبل ، واللَّه تعالى أرحم وألطف وأعدل من أن يجمع على بعض خلقه صعقتين ، والبعض الآخر صعقة واحدة .

ولذلك فكل من أصيبوا بالصاعقة من قبل فلن يصابوا بالصاعقة مرة أخرى ، فمثلاً موسى عليه السلام صعق في الدنيا عندما طلب أن يرى اللَّه جهرة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

ولذلك فإنَّ موسى لن يصاب بالصاعقة مرة أخرى ، وكذلك الجبل الَّذي تجلى له اللَّه سبحانه وتعالى فأصيب بالصاعقة فكان ﴿ دَكّٗا ﴾ ، وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صعقوا قبل ذلك ، وقال عنهم القرآن الكريم : ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ ﴾ [البقرة] .

وهناك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود ،

فهؤلاء أصابتهم الصاعقة ، ولذلك فإنَّ كل من صعقوا لن تصيبهم الصاعقة مرة أخرى ، وهذا المعنى هو ما نفهمه من قول الحق : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[١] . على أن

(١) قال القرطبي : واختلف العلماء في المستثنى : من هو ؟ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل الشهداء ، واختاره الحليمى ، قال : وهو مروي عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء . فإنَّ اللَّه تعالى يقول : ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] وضعف غيره من الأقوال على ما يأتي ، وقال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل .
قلت - أي القرطبي - : قد ورد حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء ، وهو الصحيح .
وأسند النحاس في كتاب معانى القرآن له عن سعيد بن جبير في قول اللَّه عز وجل : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قال : هم الشهداء ، هم ثنية اللَّه عز وجل متقلدو السيوف حول العرش .
وقال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين . قال يحيى بن سلام في تفسيره : بلغنى أن آخر من يبقى منهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يموت جبريل وميكائيل وإسرافيل . ثم يقول اللَّه عز وجل لملك الموت : مت فيموت . وقد جاء هذا مرفوعاً في حديث أبي هريرة الطويل على ما يأتي .
وقيل : هم حملة العرش ، وجبريل ، وميكائيل ، وملك الموت .

ذلك لا يعني أنه ليس للَّه سبحانه وتعالى طلاقة

= وقال الحليمي : من زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل وميكائيل وملك الموت ، أو زعم أنه لأجل الولدان والحور العين في الجنة ، أو زعم أنه لأجل موسى فإنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « أنا أولُ من تنشقُّ عنه الأرضُ فأرفع رأسي فإذا موسى متعلقٌ بقائمةٍ من قوائم العرشِ ، فلا أدرى أفاق قبلى أو كان ممن استثنى اللَّه عز وجل ؟ »[1] فإنه لم يصح شيء منها .

أما الأول : فإنَّ حملة العرش ليسوا من سكان السموات والأرض لأنَّ العرش فوق السموات كلها فكيف يكون حملته في السموات ؟

وأما جبريل وميكائيل وملك الموت فمن الصافِّين المسبحين حول العرش . وإذا كان العرش فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله في السموات .

وكذلك القول الثاني لأنَّ الولدان والحور في الجنة . والجنات ؛ وإن كان بعضها أرفع من بعض فإنَّ جميعها فوق السموات ودون العرش ، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق اللَّه تعالى للفناء . =

(١) أخرج مسلم [٢٣٧٣/ ١٦٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال :

قال رسول اللَّه ﷺ : « . . لا تخيرونى على موسى فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق . فإذا موسى باطش بجانب العرش . فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن استثنى اللَّه » .

القدرة ، فاللَّه له طلاقة القدرة يفعل ما يشاء متى شاء .

= وصرفه إلى موسى فلا وجه له لأنَّه قد مات بالحقيقة فلا يموت عند نفخ الصور ثانية ولهذا لم يعتد في ذكر اختلاف المتأولين في الاستثناء بقول من قال : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، أي : الذين سبق موتهم قبل نفخ الصور . لأنَّ الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بغرض أن يصعقوا . فلا وجه لاستثنائهم . وهذا في موسى موجود فلا وجه لاستثنائه .

وقال النَّبيّ ﷺ في ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو أن قال : « الناسُ يُصعقون يوم القيامةِ فأكون أولَ من يفيق . فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش . فلا أدرى أفاق قبلى أو جُوزيَ بصعقةِ الطور ؟ »[1] فظاهر هذا الحديث : أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله قيل : المعنى : أن الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أول من يرفع رأسه ، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أو جُوزى بصعقة الطور ؟ أي فلا أدرى أبعثه قبلى كان وهباً له وتفضيلاً من هذا الوجه كما فُضل في الدنيا بالتكليم ، أو كان =

(١) أخرجه البخاري [٢٤١١] ، ومسلم [٢٣٧٣/ ١٦٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

= جزاء له بصعقة الطور ؛ أي قدم بعثه على بعث الأنبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بها. وما عدا هذا فلا يثبت .

قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النَّبيّ ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية ؛ نفخة البعث ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق . ولما كان هذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء وهذا باطل بما تقدم من ذكر موته .

وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات واللَّه أعلم .

قال شيخنا أبو العباس وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى وهو متعلق بالعرش وهذا إنما هو عند نفخة البعث .

قال شيخنا أحمد بن عمر : والَّذي يزيح هذا الإشكال إن شاء اللَّه تعالى : أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك : أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذا كان هذا في الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النَّبيّ ﷺ : « أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » وأن النَّبيّ ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء ، =

= وخصوصاً بموسى وقد أخبرنا النَّبيّ ﷺ بما يقتضى أن اللَّه تبارك وتعالى يرد عليه روحه حتَّى يرد السلام على كل من يسلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غُيِّبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه اللَّه بكرامة من أوليائه . وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صُعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه ، فأما صعق غير الأنبياء فموت . وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر : أنه غشية .

فإذا نفخ في الصور نفخة البعث ، فمن مَات حيى ومن غُشى عليه أفاق . وكذلك قال ﷺ في صحيح مسلم والبخاري : « فأكون أول من يفيق »[1] وهي رواية صحيحة وحسنة فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم قبل الأنبياء وغيرهم إلا موسى فإنه حصل له فيه تردد : هل بُعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة الَّتي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً ؛ لأنَّه حوسب بغشية الطور ؟ وهذه فضيلة عظيمة في حق موسى عليه السلام . ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد ﷺ مطلقاً ، لأنَّ الشيء الجزئي لا يُوجب أمراً كليّاً . واللَّه أعلم .

التذكرة [١/ ١٩٧ : ١٩٩] .

(١) سبق تخريجه .

النفخ في الصور
في القرآن الكريم

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يس] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ=

. . . . . .

= ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون] .

وقال تعالى : ﴿ . . . وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الكهف] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق] .

وقال تعالى : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ٧٣]

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [المدثر] .

قال ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما : « الناقور » : الصور . ذكره البخاري في صحيحه .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ [النازعات] . =

= قال ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما : « الراجفة » : النفخة الأولى ، والرادفة : النفخة الثانية . ذكره البخاري في صحيحه[١] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس] .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ : لعله اسم للنفخة في الصور .

وقال البغوى في قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ يعني : صيحة القيامة ، سميت بذلك لأنَّها تصخ الأسماع ؛ أي : تبالغ في إسماعها حتَّى تكاد تصمها .

(١) أخرج البخاري [٥/ ٢٣٨٨ - باب ٤٣ - النفخ في الصور] وقال ابن عباس : الناقور : « الصور » ، الراجفة : « النفخة الأولى » . والرادفة : « النفخة الثانية » .

حديث جامع في النفخ في الصور والبعث والنشور

ذكر عبد اللَّه بن أحمد في زوائد المسند أن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول اللَّه ﷺ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق .

قال لقيط : فخرجت أنا وصاحبى حتَّى قدمنا على رسول اللَّه ﷺ لانسلاخ رجب فأتينا رسول اللَّه ﷺ فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة ، فقام في الناس خطيباً فقال : « أيها الناس ! ألا إنِّي قد خبأت لكم صوتى منذ أربعة أيام ألا لأسمعنكم ألا فهل من امرئ بعثه قومه ؟

فقالوا : اعلم لنا ما يقول رسول اللَّه ﷺ ، ألا ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضلال ، ألا إنِّي مسئول : هل بلغت ؟ ألا اسمعوا تعيشوا ، ألا اجلسوا ، ألا اجلسوا » .

قال : فجلس الناس ، وقمت أنا وصاحبى ، حتَّى إذا فَرَّغَ لنا فؤاده وبصره ؛ قلت : يا رسول اللَّه ! ما عندك من علم الغيب ؟ فضحك لعمر اللَّه ، وهزَّ رأسه وعلم أنى أبتغى لسَقَطِهِ . فقال : « ضن ربك عزَّ وجلَّ بمفاتيح خمس من=

= الغيب لا يعلمها إلا اللَّه - وأشار بيده - .
قلت : وما هي ؟
قال : « عِلْم المنية ؛ قد علم منية أحدكم ولا تعلمونه ، وعلم المنيِّ حين يكون في الرحم ؛ قد علمه ولا تعلمونه ، وعلم ما في غد ؛ قد علم ما أنت طاعم غداً ولا تعلمه ، وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزلين آزلين مشفقين ، فيظل يضحك قد علم أن غِيَرَكُمْ إلى قُرْبٍ » .
قال لقيط : قلت : لنْ نعدم من رب يضحك خيراً . « وعلم يوم الساعة » . قلت : يا رسول اللَّه ! علمنا مما تعلم الناس وما تعلم ؛ فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحد ؛ من مذحج الَّتي تَرْبَأُ علينا ، وخثعم الَّتي تواليا ، وعشيرتنا الَّتي نحن منها .
قال : « تلبثون ما لبثتم ، ثم يتوفى نبيكم ﷺ ، ثم تلبثون ما لبثتم ، ثم تبعث الصائحة ، لعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات ، والملائكة الذين مع ربك عزَّ وجلَّ ، فأصبح ربك عزَّ وجلَّ يطوف في الأرض ، وخلت عليه البلاد فأرسل ربك عزَّ وجلَّ السماء تهضب من عند العرش ، فلعمر إلهك ؛ ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتَّى تجعله من عند رأسه ، فيستوى جالساً ، فيقول ربك : مَهْيَم ، لما كان فيه .
يقول : يا رب ! أمس ، اليوم . ولعهده بالحياة يحسبه حديثاً بأهله » . =

= فقلت : يا رسول اللَّه ، كيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟! قال : « أنبئك بمثل ذلك في آلاء اللَّه ؛ الأرض أشرفت عليها وهي مَدَرَة بالية ، فقلت : لا تحيا أبداً ، ثم أرسل ربك عزَّ وجلَّ عليها السماء ، فلم تلبث عليك إلا أياماً حتَّى أشرفت عليها وهي شَرَبةٌ واحدة ، ولعمر إلهك ؛ لهو أقدر على أن يجمعهم من الماء على أن يجمع نبات الأرض ، فيخرجون من الأَصْوَاء ومن مصارعهم فتنظرون إليه وينظر إليكم » .

قال : قلت : يا رسول اللَّه ! وكيف ونحن ملء الأرض ، وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا ؟! قال : « أنبئك بمثل ذلك في آلاء اللَّه عزَّ وجلَّ ، الشمس والقمر آية منه صغيرة ، ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ، لا تضارون في رؤيتهما ، ولعمر إلهك ؛ لهو أقدر على أن يراكم وترونه من أن ترونهما ويريانكم ، لا تضارون في رؤيتهما » .

قلت : يا رسول اللَّه ! فما يفعل بنا ربنا عزَّ وجلَّ إذا لقيناه ؟ قال : « تعرضون عليه بادية له صفحاتكم ، لا يخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك عزَّ وجلَّ بيده غرفة من الماء ، فينضح قَبِيلَكُم بها ، فلعمر إلهك ؛ ما تخطئ وجه أحدكم منها قطرة ، فأما المسلم ؛ فتدع وجهه مثل الرَّيْطة البيضاء ، وأما الكافر ؛ فتخطمه بمثل الحميم الأسود ، ألا ثم ينصرف نبيكم ﷺ ، ويفترق على إثره الصالحون ، فيسلكون جسراً من النار فيطأ أحدكم الجمر ، فيقول : حَسِّ ، يقول ربك عزَّ وجلَّ أو أنه . =

= ألا فتطلعون على حوض الرسول على أظمإ - واللَّه - ناهلةٍ قط ما رأيتها ؛ فلعمر إلهك ؛ ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح يطهِّره من الطَّوْف والبول والأذى ، وتحبس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحداً » . قال : قلت : يا رسول اللَّه ! فبم نبصر ؟

قال : « بمثل بصرك ساعتك هذه ، وذلك قبل طلوع الشمس في يوم أشرقت الأرض وأجهت به الجبال » .

قال : قلت : يا رسول اللَّه ! فبم نجزى من سيئاتنا وحسناتنا ؟

قال : « الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ؛ إلا أن يعفو » .

قال : قلت : يا رسول اللَّه ! أما الجنة وأما النار ؟ .

قال : « لعمر إلهك ؛ إن للنار لسبعة أبواب ، ما منهنَّ بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً ، وإن للجنة لثمانية أبواب ، ما منهنَّ بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً » .

قلت : يا رسول اللَّه ، فعلام نطلع من الجنة ؟ قال : « على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وبفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله معه ، وأزواج مطهرة » .

قلت : يا رسول اللَّه ، أو لنا فيها أزواج ، أو منهنَّ مصلحات ؟ قال : « الصالحات للصالحين ، تلذُّونهم مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذذن بكم غير أن لا توالد » . =

= قال لقيط : فقلت : أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه ؟ فلم يجبه النَّبيّ ﷺ .

قلت : يا رسول اللَّه ! علام أبايعك ؟ قال : فبسط النَّبيّ ﷺ يده ، وقال : « على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وزِيال المشرك ، وأن لا تشرك باللَّه إلٰهاً غيره » . قلت : وإنَّ لنا ما بين المشرق والمغرب ؟ فقبض النَّبيّ ﷺ يده ، وظن أنى مشترط شيئاً لا يعطينيه .

قال : قلت : نحلُّ منها حيث شئنا ، ولا يجنى امرؤ إلا على نفسه . فبسط يده وقال : « ذلك لك ، تحلُّ حيث شئت ، ولا يجنى عليك إلا نفسك » .

قال : فانصرفنا عنه ، ثم قال : « إن هذين لعمر إلهك مِنْ أتقى الناس في الأولى والآخرة » .

فقال له كعب بن الُخداريَّةِ أحد بني بكر بن كلاب : من هم يا رسول اللَّه ؟

قال : « بنو المنتفق أهل ذلك » .

قال : فانصرفنا ، وأقبلت عليه ، فقلت: يا رسول اللَّه ، هل لأحد ممَّن مضى من خير في جاهليتهم ؟

قال : قال رجل من عرض قريش : واللَّه ؛ إن أباك المنتفق لفى النار .

قال : فلكأنه وقع حر بين جلدى ووجهى ولحمى مما قال لأبي على رؤوس الناس فهممت أن أقول : وأبوك يا رسول اللَّه ؟ ثم إذا الأخرى أجمل . =

= فقلت : يا رسول اللَّه ! وأهلك ؟ قال : « وأهلى ، لعمر اللَّه ؛ ما أتيت عليه من قبر عامرى أو قرشى من مشرك ؛ فقل : أرسلنى إليك محمد ؛ فأبشرك بما يسوؤك تجر على وجهك وبطنك في النار » .

قال : قلت : يا رسول اللَّه ! ما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟

قال : « ذلك لأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ بعث في آخر كل سبع أمم - يعني - : نبيّاً ، فمن عصى نبيه ؛ كان من الضالين ، ومن أطاع نبيه ؛ كان من المهتدين »[1] . شرح غريب الحديث ، =

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ١٣] ، ورواه أيضاً في كتاب السنة [٩٥١] ؛ والطبراني بنحوه . قال الهيثمي [١٠/ ٣٤٠] : وأحد طريقى عبد اللَّه إسنادها متصل ورجالها ثقات ، والإسناد الآخر وإسناد الطبراني مرسل من عاصم لقيط أن لقيطاً . .» ، وذكره الألباني في الصحيحة [٢٨١٠] وحسنه بعد وقوفه على طرقه ، وقال رحمة اللَّه تعالى عليه : « والخلاصة أن الحديث بمجموع الطريقين حسن عندى ولعله الَّذي يعنيه ابن تيمية بقوله : حديث حسن ، في العقيدة الواسطية بخلاف ابن القيم فقد صحح الحديث بطوله في زاد المعاد في الوفود وقال : هذا حديث كبير جليل تنادى جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة . وقد خالف الأرناؤوط ذلك في تعليقه على المسند [٢٦/ ١٢٨] وقال : إسناده ضعيف ، مسلسل بالمجاهيل ، ووصف تحسين الشيخ الألباني له بأنه تساهل غير مرضٍ عند الحذاق في هذا الفن .

= قال العلامة حمود التويجرى :

وقوله : « يشرف عليكم آزلين » : قال ابن الأثير : الأزل : الشدة والضيق ، وقد أزل الرجل يأزل أزلاً ؛ أي : صار في ضيق وجدب .

وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى في الكلام على حديث أبي رزين رضي اللَّه عنه : الأزل ؛ بسكون الزاى : الشدة ، والأزِل على وزن كَتِف : هو الَّذي قد أصابه الأزل واشتد به حتَّى كاد يقنط ا.هـ .

وقوله : « وقد علم أن غِيَرَكم إلى قرب » : « الغِيَر » ؛ بكسر الغين وفتح الياء : تغير الحال وانتقالها من القحط والجدب إلى نزول الغيث وخروج النبات من الأرض .

وقوله : « ثم تبعث الصائحة » ؛ أي : النفخ في الصور ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص : ١٥] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : ٤٥] .

وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : ثم تبعث الصائحة : هي صيحة البعث ونفخته .

قلت : وفي هذا نظر ؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « ثم تبعث الصائحة ، لعمر إلهك ؛ ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات » . وهذا صريح في أن الصيحة صيحة الصعق لا صيحة البعث . واللَّه أعلم .

وقوله : « تهضب » : قال ابن الأثير : أي : تمطر ، ويجمع=

= على أهضاب ثم أهاضيب ؛ كقول وأقوال وأقاويل . **وقوله :** « حتَّى تخلفه من عند رأسه » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : هو من أخلف الزرع إذا نبت بعد حصاده شبه النشأة الأخرى بعد الموت بإخلاف الزرع بعدما حصد ، وتلك الخلفة من عند رأسه كما ينبت الزرع ا.هـ .

ويقال : أخلف الأراك والسلم إذا أخرج الخلفة ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف ، وأخلف الخزامى ؛ أي : طلعت خلفته من أصوله بالمطر .

وقوله : « فيستوى جالساً » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : هذا عند تمام خلقته وكمال حياته ، ثم يقوم بعد جلوسه قائماً ، ثم يساق إلى موقف القيامة إما راكباً وإما ماشياً ا.هـ .

وقوله : « فيقول ربك مَهْيَم » ؛ أي : ما الأمر والشأن ؟

قال ابن الأثير : وهي كلمة يمانية ، ومنه حديث لقيط : فيستوى جالساً ، فيقول : رب مَهْيَم .

وقوله : « في آلاء اللَّه » : قال ابن الأثير : الآلاء : النعم .

وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : آلاؤه : نعمه وآياته الَّتي تَعَرَّف بها إلى عباده ا.هـ .

وقوله : « وهي مَدَرَة بالية » ؛ أي : تراب يابس .

وقوله : « شَرَبة واحدة » قال ابن الأثير : الشربة ؛ بفتح الراء : حوض يكون في أصل النخلة وحولها ، يملأ ما لتشربه ، ومنه حديث لقيط : « ثم أشرفت عليها وهي شربة واحدة » . وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : « الشَّرَبة ؛ بفتح =

= الراء : الحوض الَّذي يجتمع فيه الماء ، وبالسكون : الحنطة ؛ يريد أن الماء قد كثر ، فمن حيث شئت تشرب ، وعلى رواية السكون يكون قد شبه الأرض في خضرتها بالنبات بخضرة الحنطة واستوائها ا.هـ .

وقوله : « فتخرجون من الأَصْوَاء » : قال ابن الأثير : « الأَصْوَاء : القبور ، وأصلها من الصوى : الأعلام ، فشبه القبور بها » .

وقوله : « لا تضارون في رؤيتهما » : قال ابن الأثير : يروى بالتشديد والتخفيف فالتشديد بمعنى : لا تتخالفون ولا تتجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره ، يقال : ضارَّه يضاره ؛ مثل : ضرَّه يضرُّه .

وقال الجوهرى : يقال : أضرنى فلان إذا دنا مني دنوّاً شديداً ، فأراد بالمضارة : الاجتماع والازدحام عند النظر إليه ، وأما التخفيف ؛ فهو من الضير لغة من الضر ، والمعنى فيه كالأول .

وقوله : « مثل الرَّيْطَة البيضاء » : قال ابن الأثير : الرَّيْطَة : كل مُلاءة ليست بلفقين ، وقيل : كل ثوب رقيق لين ، والجمع : رَيْطٌ ورياط .

وقوله : « بمثل الحُمَم الأسود » : قال ابن الأثير : الحُمَمَة : الفحمة ، وجمعها حُمَم .

وقوله : « ثم ينصرف نبيكم » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : هذا انصراف من موقف القيامة إلى الجنة .

وقوله : « ويفرق على أثره الصالحون » . قال ابن القيم : أي : يفزعون ويمضون على أثره » ا.هـ . =

= **وقوله :** « فيسلكون جسراً من النار » . الجسر : هو الصراط المنصوب على متن جهنم .

وقوله : « فيقول : حَسٌ » : قال ابن الأثير : هي بكسر السين والتشديد ، كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مَضَّه وأحرقه غفلة ؛ كالجمرة ، والضربة ، ونحوهما ا.هـ .

قال الأصمعي : وهي مثل أوّه .

وقوله : « يقول ربك عزَّ وجلَّ : أو أنه » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : قال ابن قتيبة : فيه قولان : أحدهما أن يكون « أنه » بمعنى نعم ، والآخر أن يكون الخبر محذوفاً ، كأنه قال : أنتم كذلك ، أو أنه على ما تقول ا.هـ .

وقوله : « على أظمأ ناهلة قط » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : الناهلة : العطاش الواردون الماء ؛ أي : يردونه أظمأ ما هم عليه ، وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط ؛ فإنه جسر النار ، وقد وردوها كلهم ، فلما قطعوه ؛ اشتد ظمؤهم إلى الماء ، فوردوا حوضه ﷺ كما وردوه في موقف القيامة » انتهى . **وقوله :** « ويطهره من الطَّوْف » : قال ابن الأثير : الطَّوْف : الحدث من الطعام ، والمعنى : أن من شرب تلك الشربة طهر من الحدث والأذى . وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : الطَّوْف : الغائط ، وفي الحديث : « لا يصلى أحدكم وهو يدافع الطَّوْف والبول »[1] ا.هـ . =

(١) وروى أحمد في المسند [٢/ ٤٤٢] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى=

. . . . . .

= **وقوله :** « وتحبس الشمس والقمر » ، وفي بعض الروايات : « وتخنس الشمس والقمر » . قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : أي : يختفيان ويحبسان ولا يريان ، والانخناس : التوارى والاختفاء ، ومنه قول أبي هريرة : « فانخنست منه » ا.هـ .

وقوله : « وزيال المشرك » : قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى : أي : مفارقته ومعاداته ، فلا يجاوره ولا يواليه ؛ كما جاء في الحديث الَّذي في « السنن » : « لا تراءى ناراهما » ؛ يعني : المسلمين والمشركين ا هـ .

من فوائد الحديث :

قال العلامة التويجرى : وإذا علم أن حديث أبي رزين لا مطعن فيه بوجه من الوجوه ؛ فليعلم أيضاً أنه قد اشتمل على ثلاث وأربعين فائدة مهمة ، منها ما يشهد له القرآن والأحاديث الصحيحة ، ومنها ما يشهد له القرآن فقط ، ومنها ما تشهد له الأحاديث الصحيحة فقط :

١ - أن رسول اللَّه ﷺ مسئول يوم القيامة عن تبليغ الرسالة .

٢ - الرد على الذين يدعون علم المغيبات في المستقبل ، وربما ادعى بعضهم علم ما يكون بعد ملايين السنين ، فيصدقه الجهال وينشرون كذبه وجهله في جرائدهم ومجلاتهم . =

= عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يقومن أحدكم إلى الصلاة وبه أذى » يعني : البول والغائط .

وقال الأرناؤوط : صحيح بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد ضعيف .

= ٣ - إثبات صفة الضحك للَّه تعالى ، والَّذي عليه أهل السنة والجماعة إثبات صفة الضحك للَّه تعالى كما يليق بجلاله .
٤ - ذكر الصائحة ، وهي النفخ في الصور .
٥ - جواز الإقسام بصفات اللَّه تعالى ، وانعقاد اليمين بها .
٦ - ذكر موت الخلق إذا نفخ في الصور ، وموت الملائكة أيضاً .
٧ - إثبات انفراد اللَّه تعالى بالبقاء بعد موت الخلق .
٨ - ذكر إرسال المطر من عند العرش لينبت منه الخلق .
٩ - إثبات البعث بعد الموت .
١٠- إن الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم كانوا يخوضون[١] في دقائق المسائل ، ويسألون النَّبيّ ﷺ عما أشكل عليهم .
١١- ذكر الدليل على إحياء الموتى وجمعهم بعد التفرق ، وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض بعد موتها .
١٢- ١٣ إثبات القياس في أدلة التوحيد والمعاد ، وأن حكم الشيء حكم نظيره .
١٤- إثبات رؤية اللَّه تعالى في الدار الآخرة ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع .
١٥- إثبات صفة النظر للَّه عزَّ وجلَّ .
١٦- إطلاق الشخص على اللَّه تعالى . قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى في الكلام على حديث أبي رزين رضي اللَّه عنه : =

(١) خاض القوم في الحديث خوضاً : تفاوضوا فيه .
المعجم الوسيط [٢٦٢] .

. . . . . .

= وقوله : « كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ؟! » قد جاء هذا في هذا الحديث وفي قوله في حديث آخر : « لا شخص أغير من اللَّه » .

١٧- أن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه تعالى .

١٨- إثبات العرض على اللَّه يوم القيامة .

١٩- إثبات صفة اليد للَّه تعالى .

٢٠- إثبات صفة الفعل للَّه تعالى .

٢١- تبييض وجوه المسلمين يوم القيامة وتسويد وجوه الكافرين .

٢٢- إثبات الصراط ومرور الخلق عليه .

٢٣- إثبات كلام الرب تبارك وتعالى لمن شاء في الدار الآخرة .

٢٤- تطهير أهل الجنة من الطَّوف - وهو الغائط - ومن البول والأذى .

٢٥- حبس الشمس والقمر يوم القيامة .

٢٦- إثبات الجزاء بالحسنات والسيئات .

٢٧- إثبات وجود الجنة والنار .

٢٨- ذكر أبواب الجنة وأبواب النار وما بين كل بابين من بعد المسافة .

٢٩- إثبات نعيم الجنة .

٣٠- إثبات الجماع في الجنة .

٣١- أنه ليس في الجنة توالد . =

= ٣٢- ترك الجواب لمن سأل عن الغيب الَّذي لا يعلمه إلا اللَّه تعالى .
٣٣- المبايعة على التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومفارقة المشركين .
٣٤- أنه لا يجنى جان إلا على نفسه .
٣٥- الثناء على من يستحق الثناء .
٣٦- فيه فضيلة لأبي رزين وصاحبه ؛ حيث حلف النَّبيّ ﷺ أنهما من أتقى الناس في الأولى والآخرة .
٣٧- حسن الأدب مع الأكابر .
٣٨- القطع لكل مشرك بالنار .
٣٩- سماع أهل القبور وكلام الأحياء .
٤٠- أن طاعة الأنبياء هداية ، ومعصيتهم ضلالة وهذا معلوم من الدين .
إتحاف الجماعة [٣/ ٢٨٥ - ٣٥٢] بتصرف .

يوم البحث

البعث

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٢١] .

البعث مشهد من مشاهد يوم القيامة الَّتي ذكرها القرآن الكريم ، ذلك أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض ، أي : سنبعث مرة واحدة إلى الحشر .

ما معنى الحشر ؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها ، لأنَّ الناس الذين دفنوا في الأرض من عهد آدم حتَّى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة ، وبما أننا سنُبعث من نفس الأرض الَّتي دفنا فيها وسنبعث في لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيباً .

يخرج الناس من الأرض يوم البعث ، بكل صفاتهم وأوصافهم الَّتي كانوا عليها في الدنيا ، وبعض الناس يتساءل : كيف يمكن ذلك ، كيف يمكن أن تخرجنا

الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات ؟

ويقول هؤلاء الناس : لنفرض أن إنساناً مات ودفن في مكان ما ، ثم زرعت شجرة في هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها ، فإذا طرحت هذه الشجرة ثماراً ، وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار الَّتي فيها عناصر من إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة ، واختلطت العناصر ببعضها البعض ، فالعناصر الَّتي في جسد الإنسان الَّذي أكل من ثمار تلك الشجرة هي من إنسان آخر ، ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر ، وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة ، كيف يجمعها اللَّه سبحانه وتعالى يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى ؟!

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام : إن تفكيركم تنقصه الحكمة والعلم ، ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين ، وقد انتهى العلم التجريبى أو العلم المعملى ، إلى أن جسد الإنسان مكون من مجموعة عناصر هي ذاتها عناصر الطين ، وأن أولها الكربون ، والأُكْسيجين ، وآخرها المنجنيز ، ذلك هو الجسد

البشرى ، والجسد البشرى قوته من عناصر الأرض نفسها ، أو مما تنتجه الأرض ، ولذلك فإنَّ الإنسان إذا أكل كثيراً ترهَّل جسده ، وزاد وزنه ، من نفس جنس المواد المخلوق منها الجسد ، أي أن الإنسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلاً ، فإنَّ هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم ولكن من نفس مادة الجسم ، لأنَّها من الطين ، والإنسان مخلوق من طين ، وإذا لم يأكل الإنسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضاً ، هذه الزيادة والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للإنسان ، ولكنها مواد تُفْقَد وتتكون حسب الطعام الَّذي يتناوله كل منا .

نعم . . إننا جميعاً مخلوقون من عناصر الأرض ، ولكن لكل منا خلقاً مميزاً ، أي : أن نسب عناصر تكوين كل منا تختلف عن الآخر ، فبعضنا يزيد في جسمه الحديد ، وبعضنا ينقص . والبعض الآخر يزيد فيه المنجنيز ، والبعض الآخر ينقص . ولذلك فإنك تسمع أن بعض الناس مثلاً قد ذهب للطبيب فقال له : إن عندك نقصاً في الحديد ، أو في البوتاسيوم ، ويعطيه الدواء الَّذي يكمل له هذا النقص .

إذن . . فعناصر أجساد الناس كلها فيها ذات العناصر الموجودة في الأرض ، ولكن النِّسب تختلف من واحد إلى الآخر ، وتكوين هذه النسبة هو الَّذي يكوِّن كل شخص فينا ، وهذا التكوين هو من خلق اللَّه سبحانه وتعالى .

ولذلك إذا أُعِدَّتِ النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا اللَّه الخالق سبحانه وتعالى ، واختلاف النسب يعطينا عدداً لا نهائيّاً من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر .

إذن . . فاختلاف الشخصيات مبني على اختلاف النسب ، وليس على عناصر التكوين الَّتي نشترك فيها جميعاً .

ولكي نقرب ذلك إلى الأذهان ، نقول : لنفرض أننا أردنا طلاء منزل ، وأتينا بالألوان الأولية الرئيسية : الأزرق ، والأصفر ، والأحمر ،والأسود ، ثم بدأنا نعد الطلاء الَّذي نريده ، وجئنا باللون الأزرق مثلاً ، ووضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لاختلف ، ولو زدنا ذرة أخرى لاختلف عن سابقه ، وإذا جئنا باللون

الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لاختلف ، وإذا وضعنا ذرتين لاختلف ، فإذا جئنا باللون الأزرق المخلوط بذرتين من اللون الأحمر ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء لاختلف تماماً عن ألوان التركيبة السابقة .

إذن . . كل ذرة أضيفت أعطتنا لوناً مختلفاً ، ولذلك فإنَّ الَّذي يريد طلاء المنزل ، فإنه لا بدَّ أن يقوم بعمل خلطة للبويات كلها معاً ، ذلك أنه لو قام بعمل خلطة كل غرفة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبداً ، لأنَّها عملية غاية في الدقة ، بل إن اللون إذا تركته يوماً في وعاء فإنك تأتي في اليوم التالى لتجده قد تغير ، ولو أنك وضعت ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط ثم رفعتها بعد عدة أيام لوجدت أن اللون خلفها قد اختلف عن بقية لون الحائط ، لأنَّ إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون .

فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة ، فكيف يمكن أن نتصور قدرة اللَّه تعالى مع خلقه ، لا بدَّ أن يكون هناك نسباً لانهائية ، لا يقف أمامها عدد مهما يبلغ ، ذلك لأنَّه إذا كانت إمكانياتنا

الدنيوية نحن لها حدود ، وإذا كانت وسائل إدراكنا لها حدود ؛ فهذا نظره قوي ، وهذا ضعيف ، وهذا أضعف ، وهذا يسمع دبيب النملة ، وذلك لا يسمع دوي القنابل ، ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودوي القنبلة .

إذن . . فالإدراكات عند البشر تختلف ، واختلاف المدرك حجماً ولوناً وتكويناً ، هو الَّذي يُعطى هذه الإدراكات درجاتها من ضعف وقوة ، فتعطينا في الدنيا اختيارات بلا حدود ، فكيف بما كان من عند اللَّه الخالق سبحانه وتعالى ؟

إذن . . فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه ما دامت أجسادنا مخلوقة من الأرض ، وما دامت عناصر هذه الأرض هي المكونة لهذا الإنسان ففي حالة عودة الإنسان لباطن هذه الأرض المكونة من عناصر ؛ فإنَّ الأجساد ستختلط !!

نقول لهم : لا ، إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها فإذا قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ كُن ﴾ عادت هذه النسب بنفس الطريقة الَّتي تكونت بها ، أو بنفس الخلق الَّذي تم أول مرة ، فيبعث

الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو ، وبشخصيته هي هي ليحاسب ، ولا تأتي الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض ، بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره ، وكل منا سيأتي بجسده هو ، وشخصيته هو يوم القيامة ، ويُبعث هو هو ليحاسب ، فإما أن يُنعم ، وإما أن يُعذب ؛ وذلك من عظمة اللَّه تعالى وقدرته .

ثم تأتي ساعة البعث ويخرج الناس جميعاً مرة واحدة ، ويبعثون من نفس الأرض الَّتي دفنوا فيها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٥] .

وبعد أن نخرج من باطن هذه الأرض الَّتي كنا نعيش عليها نساق إلى أرض المعاد .

ذلك لأنَّ أرضنا هذه معدَّة للحياة الدنيا حتَّى لحظة البعث ، مُدَّخر فيها أقوات الخلق وأرزاقهم ، والحياة فيها تمضى بالأسباب ، والخالق سبحانه قيوم على هذه الأسباب ، لا يترك كونه لحظة ، ولا يغفل عنه برهة ، فهو سبحانه إذا شاء ومتى شاء عطَّل الأسباب لنصرة مظلوم على ظالم ، أو للقصاص لضعيف بُغى عليه من

قوي طغى بالأسباب وأفسد في الكون .

إذن . . أرض الأسباب هذه تكون قد انتهت مهمتها ، ولذلك فهي تُدمر ، والخلق يساقون إلى أرض المعاد الَّتي يتم عليها الحساب .

ومن عجائب ذلك اليوم وخصائصه أن الإنسان يرى أولاً ثم يسمع ، فقد ذكر في القرآن الكريم السمع قبل البصر ، فاللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [المؤمنون : ٧٨] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وغيرها من الآيات الَّتي تؤكد لنا أن السمع يعمل أولاً في الإنسان ، فإذا قربت أصبعك من عين طفل حديث الولادة فإنه لا يحس ، وإنما إذا أحدثت صوتاً مزعجاً بجواره فإنه يفزع ، كما أن العين تنام ، والأذن لا تنام أبداً ، ولكن مرة واحدة جاءت العين قبل الأذن في القرآن الكريم ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

في هذه الآية وحدها ذكرت العين قبل الأذن . .

لماذا ؟ لأنَّه في ساعة البعث وعندما ينفخ في الصور ليخرج الناس من قبورهم أول ما يحدث أنهم يرون ، ثم بعد ذلك يسمعون ، فهم يرون هذا المنظر الرهيب ، والناس تخرج من قبورها والحشر يتم ، وتكون الرؤية بالعين ، ثم بعد ذلك يبدأ عمل الأذن وتستطيع أن تميز ؛ ولذلك فإنه ساعة البعث من القبور أول شيء نرى ونشاهد ، ويكون الزحام شديداً لأنَّ كل الخلق الذين عاشوا على هذه الأرض في فترات مختلفة على طول الزمن من عهد آدم إلى قيام الساعة يُبعثون مرة واحدة ، لذلك سمى يوم الحشر ، لأنَّ الأجسام فيه تحشر حشراً نظراً لكثرة عدد الخلق ، ولذلك سمى يوم الحشر ، ولا نخرج هكذا جزافاً ، بل بنظام دقيق بحيث إن كل واحد منا موكل به ملك مسئول عنه منذ اللحظة الَّتي يخرج فيها من قبره حتَّى يبلغ مكانه في أرض الحشر ، فكلٌّ منا يحمل معه كتابه .

صفة يوم البعث !

يوم البعث هو اليوم الَّذي يبعث اللَّه تعالى فيه الناس من القبور ليحاسبهم على أعمالهم في الدنيا ، واليوم عندنا من شروق الشمس إلى غروبها ، فهل سيكون يوماً كأيامنا أم يوماً من أيام اللَّه الَّتي قال اللَّه سبحانه وتعالى عنها : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] .

ولقد زعم المستشرقون أن هناك تناقضاً في القرآن الكريم ، فكيف يمكن أن يكون اليوم ألف سنة ، وأن يكون خمسين ألف سنة ؟

نقول لهم : إنكم لم تفهموا معنى كلام اللَّه ، فاللَّه سبحانه وتعالى هو خالق الزمن ، والزمن مخلوق للَّه ، يجعل فيه من الأحداث ما يشاء ، ولكن اليوم عندنا

محدد من شروق الشمس إلى غروبها .

إذن . . هو يستغرق وقتاً معيناً ، ولكن في كواكب أخرى قد يختلف اليوم ، فالشمس هناك تكون مشرقة لا تغرب عدة أيام أو عدة شهور ، كما أنها تغرب ولا تظهر عدة أيام أو عدة شهور .

إذن . . الزمن نسبى ، وهو مخلوق من مخلوقات اللَّه ، جعله اللَّه تعالى مقياساً للأحداث الَّتي تقع فيه ، فنحن نقيس الأحداث بالزمن ، فنقول هذا العمل يستغرق يوماً أو يومين أو ثلاثة إلى آخره ، فلكل حدث ، ظرف زمان وظرف مكان ، ظرف الزمان هو الوقت الَّذي يستغرقه الحدث ، وظرف المكان هو المكان الَّذي يقع فيه ، وإذا خرجنا عن دائرة الأحداث فنحن لا نحس بالزمن ، فالإنسان مثلاً حين ينام لا يشعر بالزمن ، ولذلك عندما يستيقظ لا بدَّ أن ينظر إلى الساعة كى يعرف كم ساعة نامها ، أو يعرف ذلك بمقاييس الزمن العامة ، كأن يكون قد نام والشمس مشرقة ، واستيقظ وقد غابت وجاء الظلام ، أو أن يكون قد نام في أول الليل ثم استيقظ وتكون الشمس قد أشرقت ، والإنسان لا يحكم الزمن ، ولكن

الزمن هو الَّذي يحكمه ، فأنت لا تستطيع أن تبقى شاباً طول حياتك ، ولا أن توقف الأحداث الَّتي تمت أو الَّتي ستتم .

إذن . . فالزمن مقياس للأحداث ، ولكنه مقياس نسبى وليس مقياساً محدداً ، لأنَّه خاضع لمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى ، إن شاء أجراه على خلقه ، وإن شاء أوقفه ، ولذلك فإنَّ اللَّه سبحانه وتعالى وهو خالق الزمن ، يستطيع متى شاء أن يخلق يوماً مقداره اثنتا عشرة ساعة ، وأن يخلق يوماً مقداره عام ، وأن يخلق يوماً مقداره ألف سنة ، وأن يخلق يوماً مقداره خمسون ألف سنة ، وأن يخلق يوماً مقداره مليون سنة ، فبمقدار الأحداث الَّتي يريد الحق سبحانه وتعالى لها أن تتم ، يخلق لها الزمن المناسب لها ، ويوم القيامة موجود في علم اللَّه سبحانه وتعالى بكل أحداثه ، وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه ، وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون ، يقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فإذا أراد اللَّه سبحانه وتعالى ليوم القيامة أن يحدث الآن حدث ، وإذا أراده أن يحدث بعد مليون سنة حدث .

إذن . . فلا نحاول نحن أن نجعل مقاييس يوم القيامة كيوم من أيامنا ، ولذلك فمن رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه لفتنا في القرآن الكريم إلى أنه لا يوجد عنده شيء اسمه يوم مطلق ، ولذلك ورد أن هناك يوماً يساوي ألف سنة ، ويوماً يساوي خمسين ألف سنة ، حتَّى نعرف أن اللَّه يخلق الزمن بقدر الأحداث الَّتي يريدها اللَّه سبحانه وتعالى أن تقع فيه ، ولذلك إذا قال يوم القيامة ، فمعنى ذلك أنه مقدار من الزمن يتسع لكل الأحداث الَّتي ستقع في هذا اليوم العظيم ، سواء استغرقت هذه الأحداث عاماً بحسابنا الأرضي ، أو استغرقت ألف عام ، أو استغرقت أكثر من ذلك أو أقل .

إذن . . قول الحق سبحانه وتعالى لكلمة : ﴿ يَوْمٍ ﴾ ، لا نستطيع أن نعرف منه مقدار الزمن الَّذي سيستغرقه هذا اليوم ، فذلك مرتبط بمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى ، ولكننا نعرف منه أن الحساب لن يتوقف منذ أن تقوم الساعة حتَّى تتم محاسبة كل الخلق ، أي أن اللَّه سبحانه وتعالى لن يأتي في يوم القيامة ويؤجل باقى الحساب إلى يوم تال ، ولن تكون هناك فترات

للراحة ، بل سيمضى الحساب متصلاً كعمل يوم واحد وليست أياماً متتالية ، وسيبقى الناس في يوم المشهد العظيم حتَّى يتم حسابهم ثم يضرب الصراط فوق جهنم ؛ ليذهب أهل النار إلى النار ، وأهل الجنة إلى الجنة .

الدهريون . . منكرو البعث

المتتبع لمنطق إنكار الإيمان يجده كله قائماً على عدم الإيمان بالآخرة ؛ وفي هذا آيات كثيرة في سور القرآن الكريم . فماذا قال الكفار ؟ وما هو منطق عدم الإيمان ؟ يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

هذا هو منطق الكفار وعدم إيمانهم هو إنكار للبعث ، وإنكار ليوم القيامة ، فلما جادلهم الرسل قالوا ؛ كما جاء في قول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية : ٢٥] .

وقولهم كما جاء في سورة المؤمنون : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وقولهم أيضاً في سورة المؤمنون : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣ ﴾ .

وقولهم كما جاء في سورة الصافات : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ ﴾ .

وقولهم كما جاء في سورة النحل : ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ ﴾ .

هذه الآيات هي قليل من كثير ، موجودة في القرآن الكريم عن البعث ، تؤكد على أن قضية البعث هي أساس في الإيمان ، وأنه ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون ، ذلك أن إنكار البعث كما بَيَّنَّا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب ، وإذا كانت قضية البعث هي القضية اليقينية الأولى ، فإننا نجد كل المذاهب الَّتي انحرفت عن الإسلام تحاول إنكار العذاب في الآخرة بطرق شتى ، فمنها من يُحِل بعض المحرمات والمعاصى ليشعر العاصى بشيء من الاطمئنان الزائف ، زاعمين أن رحمة اللَّه تحيط بجهنم فلا يعذب فيها أحد من خلقه !! كل هذا خروج عن

المنهج ، وهو في الحقيقة محاولة للهروب من تكاليف الإيمان في الدنيا ، والحساب والعذاب في الآخرة .

وإذا كان الكافر لا يؤمن بالآخرة ، فالموت الَّذي يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفزع ، وينغص عليه معيشته ، وخصوصاً أنه يرى الموت فيمن يعرف وفيمن لا يعرف ، بل يراه في أقرب الناس إليه ، وإيمان الفطرة يلح عليه دائماً ، وملكات الإيمان الَّتي خلقها اللَّه في نفسه تتصادم مع الكفر الَّذي ملأ به حياته زيفاً ، ولذلك فهو يحاول أن يخدع نفسه دائماً بأنه لا شيء بعد الموت ، فهل يكون الإنسان سعيداً إذا وصل إلى ذلك ؟

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهي بلا هدف ولا غرض ؟! إننا نولد ونموت في عالم كله ابتلاءات للنفس ، فلو أنه ليس هناك بعث لكان الكافر باللَّه هو الفائز في هذه الحياة الدنيا ، لأنَّه أعطى لنفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصى ، ثم بعد ذلك مضى ولا شيء عليه !!

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا ؟ هل اللَّه سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر باللَّه

ورسله ؟ وهل الطائع الَّذي يحمل نفسه على منهج اللَّه ، ويحرم نفسه من الشهوات وينأى بها عن المعاصى ، يمضى هو الآخر بعد ذلك ولا شيء له ! إن هذا المنطق يتصادم مع الغاية من الخلق نفسه ، ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا . وأمنية كل كافر هي ألا يكون هناك يوم للحساب ، وألا تكون هناك آخرة ، لكنه لو تأمل بالمنطق لوجد أن هذا الكلام لا يتمشى مع العقل ، وأنه ما دام هناك خالق وما دام هناك كون فلا بدَّ أن تكون هناك غاية ، ولا توجد غاية لهذا الخلق إلا إذا وجدت تكاليف يميز اللَّه تعالى بها الصالح من الطالح ، وإذا كان ذلك كذلك ؛ فلا بدَّ من ثواب وعقاب ، ويوم القيامة هو يوم الجائزة يُجزي اللَّه تعالى فيه من أحسن ، ويعاقب من أساء .

الحشر
وأرض المعاد

يوم الحشر

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق : ٤١] .

يخرج الناس حينئذ من قبورهم ويحشرون حفاة عراة[١] وقد ملئت قلوبهم خوفاً وفزعاً من هول ذلك اليوم العظيم .

---

(١) روى أبو يعلى في مسنده [٤/ ٢٨٥/ ٢٣٩٦] عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال : سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخطب على المنبر يقول : « إنكم ملاقو اللَّه حفاة عُراة غُرلاً » .

وأخرج البخاري [٦٥٢٧] ومسلم [٢٨٥٩/ ٥٦] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً » .

قالت عائشة فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟

قال : « الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذلك » .

وقال القرطبي : قال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ =

والسؤال : هل يذهب الناس إلى المحشر على صورة واحدة ؟

= ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ : إنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس فينادى : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، ويا عظاماً نخرة ، ويا أكفاناً فانية ، ويا قلوباً خاوية ، ويا أبداناً فاسدة ، ويا عيوناً سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين[١] .
التذكرة [١/ ٢٣٤]

وقال المحاسبى في كتاب التوهم والأهوال : يحشر اللَّه الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء ، قد نُزع المُلك من ملوك الأرض ، ولزمهم الصَّغار بعد عُتوهم ، والذلة بعد تجبرهم على عباد اللَّه في أرضه . ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق ، وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور ، من غير ريبة ولا خطيئة أصابتها ، حتَّى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار .

وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان . حتَّى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم ، ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رؤوسهم ، وجميع ذلك بعينك وعين أهل الموقف =

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في الأهوال [٧٨] وقال محققه : إسناده ضعيف لأجل سعيد ابن بشير .

الجواب على ذلك : لا . . إنما يكونون على ثلاث

= ينظرون إلى هوله ، ثم انشقت بغلظها فوق رؤوسهم ، وهي خمسمائة عام ، فيا هول صوت انشقاقها في سمعهم ، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ، ثم ذابت حتَّى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٧] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] أي كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف ، وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها ، فتوهم انحدارهم من السماء لعظيم أجسامهم ، وكثرة أخطارهم ، وهول أصواتهم ، وشدة فرقهم من خوف ربهم ، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق لنزولهم ، مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم ، فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسى رؤوسهم لعظيم هول يومهم ، قد تسربلوا أجنحتهم ، ونكسوا رءوسهم بالذلة والخضوع لربهم ، وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة ، وعظم الأجسام والأصوات ، حتَّى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين ، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس ، فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن ، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح[1] بحر الشمس قد صهرته =

(١) مضح : بارز للشمس . المعجم الوسيط [٥٣٥] .

هيئات : فمنهم من يمشي مسرعاً أو يكون راكباً ؛ وهؤلاء هم المؤمنون من أهل الجنة .

ومنهم من يمشي على مهل ؛ وهؤلاء هم الذين كانوا لا يسارعون في الخيرات ، بل كانوا يتمهلون ، فإذا أُذِّن للصلاة يتباطؤون ولا يقومون على الفور للعبادة .

أما الثالثة : فيسحبون على وجوههم ، وهؤلاء هم الذين كفروا باللَّه العظيم [١] .

= واشتد فيها كربه وأقلقته ، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ، ودفع بعضها بعضاً ، واختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش ، قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم ، وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم على وجه الأرض ، ثم على أقدامهم ، ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء ، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه ومنهم إلى شحمة أذنيه ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه .

التذكرة [١/ ٢٦٨، ٢٦٩] .

(١) أخرج البخاري [٤٧٦٠] ، ومسلم [٢٨٠٦/ ٥٤] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه ؛ أن رجلاً قال : يا رسولَ اللَّه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان : ٤٣] أيُحشرُ الكافر على وجهه ؟ =

وهنا يُثَار سؤال : هل معنى ذلك أن الناس حين

= قال رسولُ اللَّه ﷺ : « أَلَيْس الَّذي أمْشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيَه على وجهه يوم القيامة ؟ »
قال قتادة حين بَلَغه : بلَى ، وعِزَّةِ ربِّنا .
وروى الترمذي [٢٤٢٤] عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « إنَّكم محشرون رِجالاً ورُكباناً ، وتُجرُّون على وجوهكم »(١) .
وروى الترمذي [٣١٤٢] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « يُحشَرُ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاةً ، وصِنْفاً ركباناً ، وصِنْفاً على وجوههم » .
قيل يا رسول اللَّه : وكيف يَمْشُون على وجوههم ؟ قال : « إنَّ الَّذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمْشِيَهم على وجوههم ، أما إنهم يَتَّقون بوجوههم كلَّ حَدب وشوك »(٢) .
وروى النسائي [٤/ ١١٦] عن أبي ذر الغفارى رضي اللَّه تعالى عنه قال : إن الصادق المصدوق حدَّثنى أن الناس يحشَرون ثلاثة أفواج : فَوجاً راكبين طاعمين كاسين ، وفوجاً تَسْحَبُهُم الملائكة على وجوههم ، وتحشرهم النارُ ، وفوجاً يمشون ويَسْعَونَ ، يُلقى اللَّهُ الآفةَ على الظهر ، فلا يَبقى ، حتَّى إن =

(١) وحسنه الألباني في صحيح [٢٥١٢] .
(٢) ورواه أحمد [٢/ ٣٥٤، ٣٦٣] ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٦١٢] .

يقومون من قبورهم يكونون قد عرفوا مصيرهم ؟ نقول : نعم . . بل إن الإنسان يعرف مصيره منذ ساعة الاحتضار ، ففي اللحظات الَّتي تخمد فيها بشريته وهو ما يعرف بـ « ساعة الغرغرة » أي اللحظات الَّتي تسبق الموت مباشرة يعرف الإنسان فيها مصيره يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

= الرجل لتكون له الحديقةُ يعطيها بذات القَتَب ، لا يقدِرُ عليها »[1] .

وأخرج البخاري [٦٥٢٢] ، ومسلم [٢٨٦١/ ٥٩] ، عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « يُحْشَر الناس يوم القيامة على ثلاثِ طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتَحْشُرُ بقيَّتَهم النارُ ، تَقِيل معهم حيث قالوا ، وتَبيت معهم حيث باتوا ، وتُصبح معهم حيث أصبحوا ، وتُمسي معهم حيث أمْسَوْا » .

---

(١) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [١١٩] .

يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ [محمد : ٢٧] .

ويقول جل جلاله : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] .

إذن . . فالإنسان ساعة يموت يُعرض عليه مقعده من الجنة ومقعده من النار[١] ، وقد يتساءل الناس إذا كان من أهل الجنة ، فلماذا يعرض عليه مقعده من النار ؟

نقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يُعرّف أهل الجنة مم نجوا منه ، ولذلك يعرض عليهم مقعدهم من النار ليعرفوا نعمة اللَّه الكبيرة عليهم إذ نجاهم من هذا العذاب ، ثم يعرض عليهم مقعدهم من الجنة ليروا ما أعده اللَّه من نعيم لأهل طاعته ، لأنَّ هناك مرحلتين في الحساب ، مرحلة يزحزح فيها الإنسان عن النار ، ومرحلة يدخل فيها الجنة ، ولذلك يقول الحق سبحانه

---

(١) أخرج البخاري [١٣٧٩] ، ومسلم [٢٨٦٦/ ٦٤] ، ومالك في الموطأ [١/ ٢٣٩/ ٤٧] والبيهقي في عذاب القبر [٥٩] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : « هذا مقعدك حتَّى يبعثك اللَّه إلى القيامة » .

وتعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . أي أن الزحزحة عن النار مرحلة ، ودخول الجنة مرحلة أخرى .

اللَّه سبحانه وتعالى يُرِي المؤمن مقعده من النار ليحس بالهول العظيم الَّذي نجا منه ، ويُري الكافر مقعده من الجنة ليعرف النعيم الكبير الَّذي حُرِم منه .

أرض المعاد

يقول اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

بعد البعث والنشور ، وخروج الناس من باطن الأرض ، فالخلق جميعاً يذهبون إلى أرض المعاد ، ولكن . . هل يذهبون هكذا ؟ كل منهم يذهب حيث يريد ، ويتجه إلى أي مكان يريده ، أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شيء في موضعه تماماً ؟

وإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة [١] ،

---

(١) أخرج البخاري [٦٥٢١] ، ومسلم [٢٨/٢٧٩٠] عن سهل بن سعد رضي اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقى . ليس فيها عَلَم لأحد » .
قال ابن الأثير : قوله : « عفراء » بيضاء ، والعفرة : البياض . قوله « النقى » أراد به الخبز الأبيض الحوارى .

فهل سنمضى وكلٌّ يذهب باختياره إلى المكان الَّذي يريده وعلى هواه ، هذا يتأخر وهذا يتقدم وهذا يذهب يميناً ، وذلك يذهب يساراً ، وبعضنا يجرى إلى الخلف هروباً من هذا الموقف الرهيب ، وآخرون يزاحمون ليتقدموا من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى الصفوف الأمامية ، ليفرغوا من أمر الحساب قبل الآخرين !! هل سيحدث هذا ؟ بالطبع لا شيء من هذا يحدث .

ومعلوم أنه بالموت قد انتهت إرادة الإنسان ، فلم يعد أحد يملك أن يختار لنفسه شيئاً ، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه ، فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر في الحياة الدنيا امتحاناً لهذا اليوم ، والآن وبعد أن انتهى الامتحان وأصبح كل إنسان رهن أعماله الَّتي أطاع فيها اللَّه والَّتي عصى فيها ، وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب ، لم يعد أحد يملك من أمره شيئاً .

وفي القرآن الكريم ، وصف دقيق لكيفية الانتقال من هذه الأرض الَّتي نعيش عليها إلى أرض المعاد ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : ٢١] .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ؛ أي : لن يفلت أحد ، الكل قادم ، من لدن آدم عليه السلام أول الخلق إلى آخر نفس جاءت لهذه الدنيا ، ولكن ليس الكل قادماً باختياره أو مشيئته ، بل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

فما هو السائق ؟ السائق في اللغة هو الَّذي يسوق الغنم إلى المرعى ، وهو الحريص على أن تسير الغنم في الطريق المرسوم إلى مكان الماء أو العُشب فلا تتجه يميناً أو يساراً ، بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها ، حيث يوجد العُشب أو الماء ، والسائق يسوقها أمامه حتَّى يوصلها إلى هذا المكان ، ولماذا يسوقها أمامه ؟ لماذا لا يجرها خلفه ؟ أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقهما والكل يتبعه ، لأنَّه لو فعل ذلك وجعلها خلفه ؛ قد تنحرف واحدة من القطيع يميناً أو يساراً ، أو تبتعد عن الطريق ، دون أن يدرك هو ذلك ، ولكنها حين تكون أمامه يمنع هذا الانحراف إذا حدث ، ويعيدها إلى الطريق المرسوم .

وهذا التشبيه الَّذي أعطاه لنا القرآن الكريم في هذه الآية ، هو الَّذي سيحدث يوم القيامة تفصيلاً ، فعندما

ينفخ في الصور ، ونخرج من القبور سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره ، ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون اللَّه ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا الملك مكلف بأن يسوق الإنسان من مكان الحشر على هذه الأرض الَّتي نعيش فيها إلى المكان المحدد له في أرض المعاد ، حيث سيتم الحساب ، وهذا الملك يكون خلف الإنسان ، تماماً كما يكون سائق الأغنام خلفها ، والإنسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة ، ولو برهة ، بل يسوقه الملك وهو أمامه حتَّى مكانه في أرض المعاد ، ويكون حريصاً عليه لا يستطيع الإنسان أن ينحرف يميناً أو يساراً ، فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ ؛ أي : ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها في أرض المعاد ، بل معها أيضاً الشهيد ، وهو : أعمالها ، شريط حياتها ، ما فعلته في الدنيا لحظة بلحظة ، حتَّى إن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا لمحة عن دقة الحساب فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾ [المجادلة : ٦] .

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

أي : أن هذا الكتاب هو الشاهد على الإنسان ، والشهيد عليه ، لا يترك عملاً صغيراً إلا أحصاه ، فإذا كان لا يترك صغيرة ، فإنه من باب أَوْلى لا يترك كبيرة .

مشاهد وصور

الزلزلة

صور ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم عن يوم القيامة ، منها قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج] .

هذا تصوير دقيق للحالة الَّتي سيكون عليها الناس ؛ كل الناس ، يوم البعث وقبل الحساب ، عقولهم من هول الموقف ستكون ذاهلة ؛ فالأم الَّتي هي في الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها ، تتابعه أينما كان ، وتلحظه أينما وجد وبخاصة إذا كان رضيعاً صغيراً ، هذه الأم ستذهل عن ابنها ، يكون أمامها فلا تراه ، وينابيها فلا تجيبه ، ويقترب منها فلا تحس به ، ذهول تام من هول الموقف العظيم !

فالناس في يوم الحساب ، كل واحد منهم مشغول بنفسه ، يفكر في ذاته ، ولا يدور بخلده أي شيء آخر ، إنه يريد أن ينجو بنفسه من هذا الهول العظيم يريد أن يطمئن إلى مصيره ، بعد أن أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه يراها بعينيه ، ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيباً عنه .

في هذه اللحظة الَّتي يفيق فيها الإنسان ويعرف أنه محشور في ساعته للعرض على ملك الملوك ؛ يذهب عقله ولا يفكر إلا في نفسه ، إنه يوم وصفه اللَّه سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم : ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل : ١٧] .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، أي : أن المرأة الَّتي تعتز في الحياة الدنيا بجنينها ، تتخلص منه ، فهي لا يشغلها إلا نفسها ، وعندما يساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخطى ثابتة ، لا يكونون ثابتين في مشيهم وفي تقدمهم ، بل إن الرعب الَّذي يجتاح القلوب يجعلهم يترنحون يميناً ويساراً كالسكارى ، حتَّى إنك إذا نظرت

إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم كأنهم سكارى ، ولكنهم في الحقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر ، ولكن هول الموقف الَّذي هم فيه ، وشدة عذاب اللَّه الَّذي يخشون أن يصيبهم يجعلهم كالسكارى فلا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم ، ويترنحون في مشيتهم .

فرار المرء
من أقرب الناس إليه

يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس] .

نفهم من قول الحق سبحانه وتعالى أنه سيكون هناك نداء بين الناس في هذا الموقف ، فهذا ينادى هذا بحكم قرابة الدنيا وبحكم الصلات الَّتي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت ، ولكن الأنساب ساعتئذٍ تختفى ، فلا يصبح أحدٌ ملتفتاً إلى تحية أو سلام أو لقاء من أحد ، رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة ، كل واحد منهم يقول نفسى نفسى[1] ، فإذا ناداه أو حاول أن يحتمى به مثلاً أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخاري [٣٣٤٠] ومسلم [١٩٤/ ٣٢٧] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه .

بل يفر منه ، فإذا ظن الابن مثلاً أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم ، فإنَّ هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه ، ولن تشفع القرابة بين الاثنين ، إلا أن يشاء اللَّه . ولها ضوابط ومقاييس حددها اللَّه سبحانه وتعالى ، وأذن بها لأنَّ القرابة والألفة والأنساب تنفع على إطلاقها في الحياة الدنيا ، فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة ، ويقفوا معه في ساعات العسرة ، فهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك ، ولكن في هذا اليوم العصيب كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين ، يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب ، لا يريد أن يتعلق به أحد ، ولا أن يحمل من أوزار أحد بل يبتعد قدر الإمكان عن الناس ؛ كل الناس ، طالباً لنفسه السلامة من العذاب ، ويقول : نفسى نفسى .

أصدقاء الأمس . . أعداء اليوم !

يساق الناس إلى أرض المعاد ، وهم يترنحون من هول الموقف ، مشيتهم غير متزنة ، وخطواتهم غير ثابتة ، وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء ، ينادونه فلا يرد عليهم ، ويستنجدون به فلا ينجدهم ، يظنون أن قرابته لهم أو صداقته بهم في الدنيا ستشفع لهم في ذلك اليوم ، ولكن هيهات . . إنه لا يلتفت إليهم طلباً للنجاة بنفسه ، وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا ، أو تجمعوا على معصية اللَّه ، يفرون من بعضهم البعض فهم يومئذٍ أعداء ألداء ، صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماماً ، ولم لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار ؟كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين ، لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم ؟ لأنَّ المتقين كانوا يتعاونون على الخير ، فإذا رأى واحد منهم زميله يمشي في طريق الخير أعانه ،

وإذا رآه يمشي في طريق الشر يقف في طريقه ، وينصحه حتَّى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على البر ، فوقوا أنفسهم عذاب النار ، كل واحد منهم نصح الآخر ، أي : أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فنفعهم ذلك في هذا اليوم العظيم ، ونجاهم اللَّه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

نور المؤمنين يوم القيامة

إن للمؤمنين نوراً يمشون به في وسط ظلمات هذا اليوم العظيم ، والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم ، أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم ، أو يكونوا لهم عوناً ، ولكن هذا كله لا يفيد ، لقد تقطعت الأسباب ، وأصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد] .

حينئذٍ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الَّذي يحيط بهم ، والرحمة الَّتي تحيط بالمؤمنين ،

ينادى الكفار والمنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم في الحياة الدنيا ، ألم نعش معاً حياة واحدة [١] ؟

---

(١) يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد اللَّه بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الحديد : ١٢] قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يتقد مرة ، ويطفأ مرة .

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال قتادة ذُكر لنا أن نبي اللَّه ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن ، أبين وصنعاء فدون ذلك حتَّى أن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه » . وقال سفيان الثورى عن حصين عن مجاهد عن جنادة بن أبي أُمية قال : إنكم مكتوبون عند اللَّه بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك ، وقرأ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقال الضحاك : ليس أحدٌ إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم : ٨] .

وقال الحسن : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني على الصراط .

وقد قال ابن أبي حاتم رحمه اللَّه تعالى : حدثنا أبو عبيد=

فيرد عليهم المؤمنون : نعم لقد عشنا حياة واحدة ،

= اللَّه بن أُخيّ بن وهب أخبرنا عمى عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن مسعود أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يحدث ، أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النَّبيّ ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم » .

فقال له رجل يا نبي اللَّه كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟

فقال : « أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم »[1] .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ قال الضحاك أي : وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٧١] .

وقوله : ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الحديد : ١٢] ، أي : يقال لهم بشراكم اليوم جنات ، أي : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنَّهار .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . =

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٤٧٨] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وسكت عنه الذهبي ، وبنحوه أحمد في المسند [٥/ ١٩٩] .

ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون ضيعتم أنفسكم بما استمتعتم به في الدنيا من نعم زائفة ، وكنتم تتربصون

= وقـــولـــه : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ ، وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن باللَّه ورسوله ﷺ وعمل بما أمر اللَّه به وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو حدثنى سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أُمامة الباهلى فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أُمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع اللَّه ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلك المواطن حتَّى يغشى الناس أمر من اللَّه ، فتبيض وجوه ، وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الَّذي ضربه اللَّه تعالى في كتابه فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] . فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور=

بعباد اللَّه المؤمنين لتؤذوهم وتُوقِعُوهم في الشر ، وظننتم أنكم لن تقفوا بين يدى ربكم ، وحسبتم أنكم

= المؤمن . كما لا يستضىء الأعمى ببصر البصير . ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾ [الحديد : ١٣] . وهي خدعة اللَّه الَّتي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء : ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الَّذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضُرب بينهم ﴿ بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ الآية . إلا أنه يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغترّاً حتَّى يقسم النور ، ويميز اللَّه بين المنافق والمؤمن ، ثم قال : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا ابن حيوة ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا يوسف بن الحجاج عن أبي أُمامة قال : يبعث اللَّه ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتَّى يبعث اللَّه بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم فيتبعهم المنافقون فيقولون : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ .

وقال العوفى والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث اللَّه نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من اللَّه إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم اللَّه على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا ، قال المؤمنون : ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور . =

ستفلتون من هذا اليوم ، وكانت شياطين الإنس والجن

= وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسن بن عرفة بن علوية القطان [١] .

حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر بن حذيفة حدثنا ابن جريج عن ابن مليكة عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم : « إن اللَّه تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإنَّ اللَّه تعالى يعطى كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب اللَّه نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا ﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الَّذي قال اللَّه تعالى : ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ ﴾ .

وهكذا روي عن مجاهد رحمه اللَّه وغير واحد وهو الصحيح .

﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ ﴾ أي : الجنة وما فيها ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ أي : النار . قاله قتادة وابن زيد وغيرهما .

قال ابن جرير وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادى جهنم . =

(١) في ابن كثير المطبوعة « العطار » والتصويب من المعجم الكبير .
(٢) رواه الطبراني في الكبير [١١/ ١٢٢/ ١١٢٤٢] .

تقدم لكم الأمانى الزائفة عما ستحققونه في الدنيا

= ثم قال : حدثنا ابن البرقى ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن سعيد بن عطية بن قيس عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال : سمعت عبد اللَّه بن عمرو يقول : إن السور الَّذي ذكره اللَّه في القرآن : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ هو السور الشرقى باطنه المسجد وما يليه ، وظاهره وادى جهنم .

ثم روي عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين نحو ذلك ، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ، ومثالاً لذلك لا أن هذا هو الَّذي أريد منه القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم فإنَّ الجنة في السموات في أعلى عليين ، والنار في الدركات أسفل سافلين .

وقول كعب الأحبار « إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الَّذي هو أحد أبواب المسجد » فهذا من إسرائيلياته وترهاته ، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه فإذا استكملوا دخولهم أُغلق الباب ، وبقى المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي : ينادى المنافقون المؤمنين أما كنا=

فأصابكم الغرور بهذه الأماني ، وتكبرتم وتجبرتم حتَّى

= معكم في الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أي : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين بلى قد كنتم معنا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ، وتربصتم أي : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت . وقال قتادة ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ ، بالحق وأهله ، ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ أي : قلتم سيغفر لنا ، وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي : ما زلتم في هذا حتَّى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أى : الشيطان قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان ، واللَّه ما زالوا عليها حتَّى قذفهم اللَّه في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين إنكم كنتم معنا ، أي : بأبدان لا نية لها ، ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون اللَّه إلا قليلاً .

قال مجاهد كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ، ويغشونهم ، ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً . ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الَّذي أخبر اللَّه تعالى=

جاء أجَلَكُم ، وجاء أمر اللَّه ، وجاء الحساب ، فوجدتم أن ما وعدكم اللَّه حقاً ، وأن ما وعدكم الشيطان غروراً ، فاليوم لا ينفعكم شيء ، ولا ينجيكم من عذاب اللَّه أحد .

= به عنهم حيث يقول وهو أصدق القائلين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر] .

تفسير ابن كثير [٤/ ٣٠٩: ٣١٠] .

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة ، فلكل واحد منهم درجة من الدرجات ، اللَّه سبحانه وتعالى يعرض لنا عدداً من هذه المواقف في القرآن الكريم ، ليرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة ، فليس المؤمنون في درجة واحدة ، وكذلك الكافرون ليسوا على درجة واحدة ، ولكن لكلٍّ درجة ، ولكلٍّ حال ، هناك الذين كذبوا على اللَّه ، وهناك الذين أشركوا باللَّه ، وهناك الذين عبدوا غير اللَّه ، وهناك الذين أضلوا الناس . إذن . . صور عديدة ومتعددة .

فهذا يريد أن يفر[١] ، وهذا يتمنى أن يكون تراباً[٢] ،

---

(١) إشارة إلى قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس] .

(٢) إشارة إلى قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ : ٤٠]

وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحاً ولو عاد لأفسد[١] ، والناس حين يساقون إلى أرض الميعاد يكونون في هيئات وأحوال متعددة فهم في أول يوم الحشر في حال ، وفي آخره في حال ، كل واحد من الناس له حالة تناسب عمله في الدنيا ، وقد أخبرنا ربنا سبحانه في كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم بشئ من تلك الصور في ذلك اليوم وأحوال الناس فيه ، فقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] . ولكن هل البياض أو السواد يتعلق باللون ، أم يتعلق بالحالة ؟

في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه هَمّ ، وبلغ حالة اليأس يقول لك : لقد اسودت الدنيا في وجهى ، هل الدنيا اسودت حقاً وأصبح لونها أسود ؟ بالطبع لا . . إن الدنيا كما هي ، ولكن ما يعترى هذا الإنسان من الهمّ جعل الدنيا سوداء في نظره ، وأصبح لا يرى شعاع النور والأمل .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر : ٣٧]

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام] .

وكم من إنسان لون بشرته سمراء ، ولكنك ترى وجهه مشرقاً بالإيمان ، متلألئاً بالنور ، تستبشر به وتقول : إن وجهه مشرق .

إذن . . فاللون هنا ليس هو المحل ، ولا يستطيع إنسان أن يقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء في الدنيا ، وذم الوجوه السوداء ، وشبه بهم الكافرين . . إن عدل اللَّه يأبَى هذا ، فلا فرق بين عباد اللَّه جميعاً إلا بالتقوى[١] ، بل إن أهل جهنم قد يكونون من أصحاب الوجوه البيضاء في الدنيا ولكن أعمالهم مجلَّلَة بالسواد .

إذن . . فالسواد هنا معناه : أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بِغَضّ النظر عن لونها ، فإنك ترى سحب السواد تكسوها ، تراها وقد غاب عنها الإشراق فتبدو ذميمة كالحة ، تحس أن كل ما حولها أسود ، فعملها أسود ، وحسابها أسود ، ومصيرها أسود ، ولا أمل لها ولا فيها .

إذن . . موكب الحشر يمضى ، وهم يومئذ على

(١) إشارة لقول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

صور مختلفة ، إنهم يمشون جماعات ، المؤمنون جماعات ، والكافرون جماعات ، وكل جماعة في شأن ، جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقول قائلهم : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤] .

فقد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا من جرم في حق أنفسهم بمعصيتهم للَّه تعالى .

وجماعة أخرى كذبوا على اللَّه فاسودت وجوههم بعملهم هذا ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

وأخرى قال اللَّه سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ [يونس : ٢٧] .

وآخرون يتمنون أن تُسَوّى بهم الأرض : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [النساء : ٤٢] .

هناك صور عديدة في القرآن الكريم تبين أحوال الخلق جميعاً يوم القيامة خلق يحملون أوزارهم ، وآخرون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، أي : أنهم لا يحملون فقط خطاياهم ، بل يحملون أيضاً من خطايا آخرين ظلموهم ، فاقتص اللَّه تعالى منهم بأن

أخذ من حسناتهم للمظلومين ، فلما نفذت الحسنات ، أخذ من سيئات المظلومين وحمَّلها على الظالمين[١] .

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فالمؤمن الصالح لا يتأثر بعمل قريبه العاصي أو الكافر ، لأنَّ اللَّه تعالى يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ويقول تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] . أي : أن كل واحد يحمل ذنبه فقط الَّذي اقترفه ، ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر وضرب اللَّه سبحانه وتعالى لنا أمثلة في القرآن الكريم توضح ذلك ، ففرعون مثلاً كان من أشد العصاة للَّه ، نصب نفسه إلهاً في الأرض ليعبده الناس ، وجاءه نبي اللَّه موسى عليه السلام بآيات كثيرة ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [٢٥٨١/ ٥٩] ، والترمذي [٢٤١٨] ، وأحمد في المسند [٢/ ٣٧١] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة ، وصيام ، وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإنْ فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

فرفض أن يؤمن ، واستمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية ، فكان جزاؤه أن اللَّه سبحانه وتعالى وعده بأشد العذاب ؛ قال الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

وفرعون هذا ، كانت له امرأة صالحة مؤمنة ، كرمها اللَّه تعالى وشرفها بأن ذكرها في القرآن العظيم ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١] .

وهكذا نرى أن امرأة فرعون الَّتي عاشت حياتها في بيت إمام الكفر والضلال ؛ في قصر فرعون ، أنها أخلصت للَّه سبحانه وتعالى ، وطلبت منه سبحانه النجاة من فرعون وعمله ، ومن القوم الظالمين المحيطين به ، فكان جزاؤها في الآخرة الجنة ، ولم يحملها اللَّه من أوزار فرعون شيئاً .

وفي المقابل ، امرأة نوح وهو نبى ، وامرأة لوط وهو نبى ، تأمل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] .

هذه قصة امرأتين كانتا في بيتى نبوة ولكنهما كفرتا باللَّه ، وناصرتا الكفار ضد دعوة اللَّه تعالى ، فكان مصيرهما النار ، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتى نبيين ، لأنَّ أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم وصدقوا بالرسالة وعملوا بها .

وكذلك ابن نبي اللَّه نوح الَّذي رفض أن يؤمن وأصر على الكفر ، فلم يغن عنه أنه ابن رسول ونبى ، وعندما أراد نبي اللَّه نوح النجاة لابنه وقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ [هود : ٤٥] .

قال اللَّه تعالى مُعلماً ومُرشداً لنبيه ورسوله نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾[هود : ٤٥] .

وكذلك الخليل إبراهيم أراد أن يستغفر لأبيه آزر ، فلما علم أنه عدو للَّه تعالى أنكره وتبرأ منه ، وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

المضلون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم

الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم تؤكد لنا : ﴿ لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] ، وأن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ، وأن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] .

وذلك يعني : أن الإنسان يحمل يوم القيامة ما ارتكب من وزر فقط ، وأن كل إنسان يحاسب على عمله هو ، وأن أي نفس لا تحمل إثماً أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى .

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فكيف نفهم قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] .

نقول : إذا كان الوزر الَّذي يحمله هو من عمله ، فالوزر الَّذي يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضاً ، فالإنسان حين يكون كافراً أو عاصياً ، فإنه يحمل وزره

يوم القيامة ، فإذا كان مُضلاً ، أي : لا يكتفى هو باقتراف المعاصى بل يزينها لغيره ، فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلاً ، ويغريهم بالزنا ، ويزين لهم أكل الربا ، وشهادة الزور ، وقتل النفس ، فإنه في هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس الذين أضلهم وزيَّن لهم المعاصى فوق وزره .

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر ، كلما تناول كأساً من الخمر فعلى الَّذي زين له ذلك إثم ، ولا ينقص من إثم الشارب شيء ، وكل إنسان شجع امرأة أو رجلاً على الزنا ، كلما زنى هذا الرجل أو هذه المرأة كان عليه إثم ، ولا ينقص من إثمهما شيء .

وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « من سنّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن استنَّ سنَّة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة »[(١)] .

على أن السؤال هنا هو الصورة الَّتي سيتم عليها ذلك ، هل سيحمل الإنسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام ؟ وهل من الممكن أن تكون

(١) أخرجه مسلم [١٠١٧/ ٧٠] من حديث جرير رضي اللَّه تعالى عنه .

الصورة هكذا ؟ أم أن الناس يحملون كتاباً فيه أعمالهم ، وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلاً يتعثرون به لا يستطيعون المشى ، وأحياناً يضطرون أن يزحفوا على بطونهم ، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون .

الصورة هنا غيب لا يعلمها إلا اللَّه سبحانه وتعالى ، ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم ، ثقل يجعل هذه الظُّهور تئن مما تحمل تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة ، ويبذل جهداً كبيراً في أن يخطو خطوة واحدة .

يتلفت يميناً ويساراً يبحث عمن يساعده في هذا الحمل الثقيل فلا يجد أحداً ، الكل يهرب منه . واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] .

ذلك أن أول ما تحاول أن تستنجد به ، وأول من يلجأ إليه الإنسان في وقت الشدة هم أقاربه ، فتحاول هذه النفس في هذا اليوم العصيب أن تستنجد بأولادها وإخوتها ، بل كل الأقارب ولكنهم جميعاً يهربون ، ولا يحمل أحد من هذا الحمل شيئاً .

البراءة من الشرك

يجمع اللَّه تعالى يوم القيامة الذين اتخذوا من دونه أنداداً ، وذلك المتخذ نداً . ويواجههم حتَّى تكون الفضيحة على رؤوس الأشهاد ، بين عابد عبد باطلاً ، وبين معبود غير مستحق للعبادة ، وهذا الغير مستحق للعبادة نوعان : نوع لم يطلب من أحد أن يعبده كالملائكة والرسل والصالحين ، أو كالشمس والقمر والبقر والنار والأصنام .

والنوع الثاني : الَّذي تأله على اللَّه ، وعبد الخلق له ظلماً وبغياً بغير الحق ، كفرعون وأمثاله من الطغاة والظالمين .

وهذا الحوار الَّذي سيتم ، وهذه المواجهة ستكون على رؤوس الأشهاد جميعاً .

وقد يتساءل بعض الناس . . كيف يمكن لهذا الجمع الغفير أن يشهد ويسمع ويرى هذا الحوار ؟ نقول

لهؤلاء جميعاً : لو فكرتم قليلاً لما أصابتكم الدهشة ! ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم ؛ تنقله الأقمار الصناعية ، ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه في جميع بقاع الأرض في آن واحد ؟

وإذا كانت هناك مثلاً مباراة لكرة القدم ، ألا نستطيع أن نشهدها هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد ، ونسمع ما يدور هناك ؟ فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع ، نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة ، إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر ، فكيف بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى . ألا يستطيع اللَّه عز وجل بقدرته أن يجعل خلقه كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه وهم في أماكنهم ؟ إن ذلك على اللَّه يسير ؛ وهو على كل شيء قدير .

إذن . . هذا الحوار سيكون علنيّاً يشهده أهل المحشر كلهم ، يرون ويسمعون ما يدور ، سيرون ما يحدث ، وكيف سيكون الحساب ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣] .

أ

براءة الملائكة

ومن هؤلاء الذين عبدوا بغير حق ولا علم لهم بعبادة الناس إياهم ؛ الملائكة . يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ] .

وهكذا برأت الملائكة أنفسهم من هذا الاتهام ، ونزهوا اللَّه سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود غيره ، فقالوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، أي : تباركت وتعاليت وتنزهت من أن يُعبد غيرك في هذا الكون ، ثم تقول الملائكة : أنت يا رب إلٰهنا ، ونحن في طاعتك لا نجرُؤ على المعصية ولا نقدر عليها ، ولم نَقُلْ لهؤلاء الكفار اعبدونا ، بل لم نكن ندرى شيئاً عن عبادتهم لنا ، وكيف نفعل ذلك ونحن مخلوقون لعبادتك مفطورون على طاعتك .

ب

براءة الكواكب والجماد

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم والجبال والحجارة وكل ما عُبد من دون اللَّه ، ويسألهم ، هل أنتم قلتم لهؤلاء اعبدونا من دون اللَّه ؟ وهنا يرد الجميع ، كل بدوره ، وكل شيء يوم القيامة سيتكلم لأنَّ اللَّه سينطق كل شيء ، سَيُنْطِق الحجارة والشمس والماء ، وكل ما في الكون فيقول هؤلاء جميعاً كل بدوره ، يا رب نحن لم نقل لهم شيئاً ، نحن أعْبدُ لك منهم ونحن نسبحك ليل نهار ، ونحن مفطورون على طاعتك ، سلهم يا رب أي رسول أرسلناه إليهم ليبلغهم عن ألوهيتنا ، أو أي منهج بلغناه لهم ليطبقوه في عبادتنا ؟!

بالطبع لا شيء . . فلا الشمس أرسلت رسولاً إلى الناس تقول لهم اعبدوني ولا القمر أعد منهجاً لعبادته ، ولا الأحجار ادّعت أنها آلهة لا بدَّ أن يسجد لها بل كل هذه المخلوقات عابدة مسبحة للَّه تعالى ،

تلعن الإنسان الكافر وتتمنى أن تفتك به ، وتتم هذه المواجهة كما قلنا أمام خلق اللَّه جميعاً ، وخصوصاً أولئك الذين عبدوا هذه الأشياء حتَّى يكونوا شهداء على أنفسهم بشهادة الآلهة بزعمهم الَّتي عبدوها من دون اللَّه تعالى ، ليس هذا فقط بل إن الذين اتُّبعُوا سواء بعلم أو بغير علم ، سيتبرأون من الذين اتبعوهم ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ [البقرة : ١٦٦] .

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات الَّتي عُبدت من دون اللَّه تعالى ، لتعلن أمام اللَّه سبحانه وتعالى أنها لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة ، وأنهم لم يدعوا أحداً لاتخاذهم آلهة ، ولذلك عندما يخاطب اللَّه سبحانه وتعالى الأحجار الَّتي اتخذوا منها أصناماً ، تقول الأحجار عبدونا ونحن أعبد للَّه من القائمين في الأسحار ، ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد اللَّه ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

بعض الناس يتساءل : هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة ؟ وهل ستنطق ؟

نقول لهم : إن كل شيء سينطق يوم القيامة ، فأعضاء الإنسان ستشهد عليه ، والأرض الَّتي يمشي عليها ستشهد عليه وتُحدِّث بما فعل على ظهرها[١] تسألوننا كيف ستنطق ؟ وبأي لغة ستتكلم ؟ نقول : إنها ستتكلم بلغة تفهمونها جميعاً ، فإذا كان الإنسان سيفهم

---

(١) روى الترمذي [٢٤٢٩] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قرأ رسول اللَّه ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة : ٤] ، قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : اللَّه ورسوله أعلم .
قال : فإنَّ أخبارها أن تشهد على كلِّ عبدٍ أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا وكذا وكذا . فهذه أخبار .
وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب[١] . قال القرطبي : فتفكر يا أخي ، وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك ، وأعظم الشهود لديك المطَّلعُ عليك الَّذي لا تخفى عليه خافية عين ، ولا يغيب عنه زمان ولا أين . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] . فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه ، وقادم عليه ، يجازى على الصغير والكبير والقليل والكثير . سبحانه لا إله لا هو .
التذكرة [١/ ٣٢٩] .

---

(١) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٤٢٨] .

لغة العين والسمع والجلد ، ويعتب على أعضاء جسمه فيقول لها : ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ ؟

ومعنى ذلك : أنهم فهموا كلامهم ، وإلا لما قالوا : ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ ؟

فترد الجلود والأسماع والأبصار : ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

إذن . . هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعه وبصره وجلده وكل جوارحه بلغة يفهمها الإنسان ، وتفهمها هذه الأعضاء كلها ، وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة .

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية ، ورجل عربى لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية ؛ هل يمكن أن يدور بينهما حوار ؟ بالطبع ؛ لا ، ولكن لا بدَّ أن تكون هناك لغة مشتركة ، وسيعلمنا اللَّه سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض ، ولغة كل مخلوقاتها الَّتي نراها والَّتي لا نراها ، حتَّى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى ، فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا ، ونحن سنرى إبليس وذريته ، ويدور بينه وبين الكافرين حوار ، وكل

شيء سيتكلم وينطق ، كل شيء كان صامتاً في الدنيا سيتكلم ، وسينطق ، وسيشهد ، حتَّى الأشياء الَّتي سخرها اللَّه لإرادة الإنسان وجعلها خاضعة لهذه الإرادة في الدنيا كاللسان مثلاً الَّذي جعله اللَّه صالحاً لأنَّ يقول كلمة الإيمان ، وأن يقول كلمة الكفر والعياذ باللَّه ، فإذا أمر الإنسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها ، ولكن هذا اللسان في ذاته عابد وطائع ومسبح ، ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه بأنه أجبره على نطق كلمة الكفر لأنَّه مسخر لإرادة الإنسان .

ولكن عندما تخمد الإرادة البشرية بالموت ، يشهد كل شيء على الإنسان ، ولا يملك الإنسان أن يقهر عضواً من أعضائه على أن يفعل ما يغضب اللَّه ، بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه ، ولذلك فإنَّ الحجارة الَّتي هي أعبد للَّه من كثير من البشر ، ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منهم ، وكذلك الشمس والقمر والنجوم ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ [البقرة : ١٦٦] .

جـ

براءة الرسل عليهم صلوات اللَّه وسلامه

فإذا انتقلنا إلى البشر ، وعلى قمتهم الرسل يسأل اللَّه سبحانه وتعالى عيسى ابن مريم عليهما السلام : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾(١) [المائدة : ١١٦] .

وهكذا يتبرأ الرسل عليهم السلام من الذين عبدوهم من دون اللَّه ، ويجد أولئك الذين أشركوا باللَّه أنفسهم في موقف حقير جدّاً ، فهؤلاء الذين عبدوهم في الدنيا وقدموا لهم القرابين ، وأتعبوا أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة ، هؤلاء الذين أمضى المشركون جل حياتهم يتقربون إليهم ؛ يتبرأون منهم ذلك اليوم ، وحينئذٍ يشعر هؤلاء

(١) انظر فصل : شهادة عيسى عليه السلام في ص ١٤٨ من هذا الكتاب .

المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم ، ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض ، أو كانوا تراباً بدلاً من أن يقفوا هذا الموقف المخزى أمام اللَّه سبحانه وتعالى .

إبليس اللعين
يحاول التنصل من جريمته !

ثم يأتي دور إبليس فيقول لمن اتبعه من الغاوين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] ويُرى في ذلك اليوم مذموماً مدحوراً ، خاسئاً حسيراً ، وهو الَّذي طغى من قبل حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] . وأعلن من بدء الأمر أنه سيكون عدوّاً لآدم وذريته .

ولكنه استدرك وقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٣] .

إذن . . فكل من عبد اللَّه مخلصاً وقاه اللَّه غواية إبليس ، ولم يستطع أن يقدر عليه ، وكل من عبد اللَّه

وفي قلبه شك ، أو رياء ، أو نفاق ؛ فإنَّ غواية الشيطان تدخل إلى نفسه فيزين له المعصية ، وإبليس يعرف ناحية الضعف في الإنسان فيغويه منها .

فإنْ كان الإنسان ضعيفاً أمام المال أغواه إبليس بالمال ، وإن كان الإنسان ضعيفاً أمام النساء أغواه إبليس بالنساء ، وإن كان الإنسان ضعيفاً أمام الجاه والسلطة ، والسلطان ، أغواه إبليس بالجاه والسلطان .

إذن . . فالغواية من إبليس وذريته ، لذرية آدم ، يكون محجوباً عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية للَّه ، فهؤلاء ناجون من غواية إبليس ؛ لأنَّ اللَّه وقاهم سلطان إبليس وذريته ، فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا ، وإنما عبدوا اللَّه وأخلصوا له الدين .

يجمع اللَّه إبليس وذريته ، وهم الفاسقون من الجن ، لأنَّ هناك من الجن صالحين مؤمنين ، وهناك الجن الظالمون الفاسقون[1] ، فالجن الذين يتبعون

---

(١) إشارة لقول اللَّه تعالى في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾ .

إبليس في إغواء الإنسان ، وفي إفساد منهج اللَّه في الأرض ، هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين ، ولا بدَّ أن نعرف أن الجن هم مقابل الإنس ، ولهم اختيار ، وأنه كما يوجد في الإنس طائع وعاص ، كذلك يوجد في الجن ، العاصون وهم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر ، مثلهم كمثل طبقة من الإنس أغواهم الشياطين ، فأصبحوا في خدمتهم ، يفسدون منهج اللَّه ، وهؤلاء هم شياطين الإنس .

إذن . . فالحوار بين من ومن ؟ أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئاً عن ذلك ، أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج ؟!

حشر الذين أشركوا وشركاؤهم

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] .

إذن . . فالكلام هنا : للذين أشركوا من الإنس والجن ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ ، وحين تسمع إنساناً يقول لك مكانك ؛ يعني : لا تتحرك حتَّى ينتهي هذا الموقف ويحسم ، وهي كلمة وعيد ، وتهديد من اللَّه سبحانه وتعالى ، ومعناها لا تتحركوا فإنَّ عليكم حساباً لا بدَّ أن توفوه ، وهذا الحساب ليس في صالحكم .

الذين أشركوا يحسبون أنهم ضاعوا في زحام الآخرة ، وأنهم أفلتوا من المواجهة ، ومن الفضيحة أمام خلق اللَّه ، ولكن عندما يسمعون قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ يتأكدون أنهم لن يفلتوا ، وأنهم في قبضة اللَّه تعالى ، وليس هم فقط ، بل هم وشركاؤهم . وذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ

﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ ؛ أي : كل الذين اجتمعوا على باطل في الدنيا يجمعهم اللَّه يوم القيامة ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى لا يجمعهم في معسكر واحد ، إنه سبحانه يجعل الذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر ، والذين انقادوا لهذه الغواية في معسكر آخر ، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس : ٢٨] ؛ أي : فرقنا بينهم ، حتَّى يصبح هناك فريق يواجه فريقاً ، فيقول : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس : ٢٨] .

حشر الذين ظلموا وأزواجهم

وفي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ؛ يقول الحق سبحانه : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : ٢٢] .

أي : إن الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم ، بل ستحشر معهم زوجاتهم ، لماذا جعل اللَّه الزوجات يحشرن مع أزواجهنَّ الذين ظلموا ، بل قدم الزوجات على ما كانوا يعبدونهم من دون اللَّه ؟

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون ، ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات في الإغواء وفي التوجيه إلى الشر قبل الشيطان ، وما كان يزينه من عبادة غير اللَّه تعالى .

اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذا ، إلى أن هناك في بعض الأحيان من النساء من هنّ أفسد لدين الرجل من الشياطين ، فمنهنَّ من ينتهزن فرصة حاجة

الرجل إليهنَّ ، ويدفعونه إلى طريق الإثم والانحراف ، ليفعل ما يردن ، فإنْ كُنَّ في حاجة إلى المال ، أغرينه ليسرق أو يرتشى . وإن كُنّ يردن الحياة الناعمة ، أغرينه بارتكاب المعاصى كلها حتَّى يهيئ لهنَّ هذه الحياة . وإن كُنّ يردن الانتقام من شخص ما ، أغرينه بالشر والكذب والتزوير ، وربما الجريمة ، ليصلن إلى هدفهنَّ من شهوة الانتقام ، ولو بالزور والزيف ، ويطيع الزوج المغلوب على أمره ، وينحرف ، ويفعل كل ما يطلب منه دون النظر إلى الحلال والحرام ، رائده في ذلك طاعة زوجته وطلباً لمرضاتها .

إذن . . اللَّه سبحانه وتعالى يفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة ، وعلى مشهد من خلقه جميعاً ، وهم واقفون في المحشر ينظرون ؛ فيصدر الأمر إلى ملائكته : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] .

أي : أوقفوهم في مكان محدد حتَّى يكونوا معروفين ومميزين من دون الخلق جميعاً لنسألهم عما فعلوا ، فكأنه في هذه الحالة يكون الزوج والزوجة مسئولين معاً

عن الإثم الَّذي حدث ، فالزوجة لها إثم بحيث ارتكبت معصية بالتحريض الَّذي قامت به ، والإغواء على الإثم الَّذي ظلت تطارد به زوجها ، وكأنها شيطان ملازم له تأمره بالمعصية ، فإذا رفض جعلت حياته جحيماً حتَّى يذعن ويفعل ما تريد ، والزوج هو الآخر مسئول ، لأنَّه كان عليه أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة الَّتي تريد أن تدفعه إلى الهاوية ، جرياً وراء ملذاتها وشهواتها ، فلا هي تخشى اللَّه وترضى بما قسمه لها ، ولا ترحم زوجها ، فهي تدفعه لارتكاب شتى أنواع المحرمات ليأتي لها بما تريده ، وهذا أحد الأسباب في أن اللَّه شرع الطلاق ، ألا فليعلم الناس جميعاً أنه لا عذر لأحد في أن يطيع مخلوقاً في معصية الخالق[١] .

وهنا في هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج

---

(١) أخرجه البخاري [٧٢٥٧] عن عليّ رضي اللَّه تعالى عنه أن النَّبيّ ﷺ بعث جيشاً وأَمَّرَ عليهم رجلاً ، فأوقد ناراً وقال : « ادخلوها » فأرادوا أن يدخلوها وقال : آخرون : إنما فررنا منها فذكروا للنبى ﷺ .
فقال للذين أرادوا أن يدخلوها :
« لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة » وقال للآخرين : « لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف » .

وزوجته ، ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر ، وحينئذ يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ .

أي : أنكم كنتم حزباً واحداً ، كنتم يداً واحدة ، كان كل منكم يسرع إلى تلبية رغبة الآخر ، والوقوف معه في الباطل ، فما لكم اليوم لا تناصرون ، بل تقفون لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : ٢٦] .

لماذا استسلموا ؟ مع أنهم كانوا في الدنيا يتعاونون على الإثم والعدوان وقد كانوا لا يستسلمون لشيء ، فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس ، أو إلى أي طريق آخر .

شهادة عيسى
عليه السلام على قومه وأتباعه

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة] .

هذا مثل لشهادة التبليغ من الرسل وبأنهم قاموا بالتبليغ بمنهج اللَّه كما نزل من السماء ، واللَّه يعلم صدق رسله في البلاغ ، ولكن ليكون حساب من انحرفوا عن المنهج عدلاً ، وليكون هؤلاء الذين انحرفوا بالمنهج ، شهداء على أنفسهم ، فلا يستطيعون أن ينكروا ، ولا أن يدّعوا أن هذا التحريف هو من فعل الرسل أو من بلاغهم .

ويأتي جواب عيسى عليه السلام مُنكراً على الذين قالوا هذا القول وادعوا فيه ما ليس بحق ، وبدأ كلامه بأن نزه اللَّه سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود سواه فقوله : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي : تنزهت ، وتقدست وتعاليت ، عن أن يكون هناك معبود غيرك . ثم يؤكد عيسى عليه السلام صدق بلاغه عن اللَّه فيقول : ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ .

أي أن عيسى عليه السلام يقول : يا ربى خلقتني على الصدق ؛ فكيف أتجاوز وأدَّعي حقّاً ليس لى ، ثم يلتمس عيسى من اللَّه الشهادة فيقول : ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾ ، أي : أنك يا ربى تعلم كل ما نطقت به فإذا كنت قلت مثل هذا الكلام فلا بدَّ أنك علمته ، وإن كنت أخفيته في نفسى ولم أقله ولكنَّني اعتقدت به ولم أظهره لأحد فأنت يا ربى علمته أيضاً لأنك يا ربى : ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ .

ثم يقول عيسى عليه السلام مقرراً حقيقة دعوته : ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

وكذلك يُسأل كل الأنبياء والرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين عن أُممهم [١] .

(١) قال القرطبي : أخرجه ابن المبارك في رقائقه مرسلاً ، أخبرنى رشدين بن سعد ، قال : أخبرنى ابن أنعم المغافِرى عن حبان بن أبي جبلة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا جمع اللَّه عبادَه يومَ القيامة ، كان أولُ من يُدعَي إسرافيلُ عليه السلام ، فيقول له ربُّه ما فعلت في عهدى ، هل بلغت عهدى ؟ فيقول : نعم قد بلغت جبريلَ . فيدعى جبريل عليه السلام فيقول : هل بلغك إسرافيل عهدى ؟ فيقول : نعم يا رب قد بلغنى ، فيخلى عن إسرافيل ، ويقال لجبريل : هل بلغت عهدى ؟ فيقول جبريل : نعم قد بلغت الرسلَ ، فيدعي الرسلُ فيقول : هل بلغكم جبريل عهدى ؟ فيقولون : نعم ، فيخلى عن جبريل . ثم يقال للرسل : هل بلغتم عهدى ؟ فيقولون : قد بلغنا أممنا . فتدعى الأمم فيقال لهم هل بلغكم الرسلُ عهدى ؟ فمنهم المصدق ، ومنهم المكذب . فتقول الرسلُ : إن لنا عليهم شهوداً يشهدون أن قد بلغنا ، مع شهادتِك . فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون محمدٌ وأُمتهُ ، فتدعى أمة محمد . فيقولون : تشهدون أن رسلى هؤلاء قد بلغوا عهدى إلى من أُرسلوا إليه ؟ فيقولون : نعم ، رب شهدنا أن قد بلغوا فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الربُّ : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولاً ، وأنزلت إلينا عهدَك وكتابَك وقصصك علينا ، أنهم قد بلغوا ، فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول=

= الربُّ : صدقوا . فذلك قوله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، والوسط : العدل ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . قال ابن أنعم : فبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد ﷺ إلا من كان في قلبه حنة على أخيه .

وقال - أي القرطبي - : وذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة ، أن هذا يكون بعدما يحكم اللَّه تعالى بين البهائم ويقتص للجَماء من القَرْناء ، ويُفْصل بين الوحش والطير يقول لهم : كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض وحينئذ ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء : ٤٢] . ويتمنى الكافر فيقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ : ٤٠] ثم يخرج النداء من قِبل اللَّه تعالى : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى به له هرج عظيم . فيقول اللَّه تعالى : أين ما سطرت فيك من توراة وزبور وإنجيل وفرقان ؟ فيقول : يا رب نقله مني الروح الأمين . فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه . فيقول اللَّه تعالى : يا جبريل هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي ، أصدق ؟ قال : نعم يا رب قال : فما فعلت فيه ؟ قال : أنهيتُ التوراة إلى موسى ، وأنهيت الزبورَ إلى داود ، وأنهيت الإنجيل إلى عيسى ، وأنهيت الفرقان إلى محمد عليهم السلام ، وأنهيت إلى كلِّ رسول رسالتَه وإلى أهل الصحف صحائفهم .

فإذا بالنداء : يا قوم نوح ، فيؤتى بهم زمرةً واحدة ، فيقال : هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة . فيقولون يا ربنا =

= كذب ، ما بلغنا من شيء ، وينكرون الرسالة . فيقول اللَّه يا نوح ألك بينة ؟ فيقول : نعم يا رب ؛ بينتى عليهم محمد وأمته . فيقولون : كيف ونحن أولُ الأمم وهم آخرُ الأمم ؟ فيؤتى بالنَّبيّ ﷺ فيقول : يا محمد هذا نوح يستشهد فيشهد له بتبليغ الرسالة . فيقرأ ﷺ : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ [نوح : ١] إلى آخر السورة . فيقول الجليل جل جلاله : قد وجب عليكم الحق ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . فيؤمر بهم زمرةً واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب .

ثم ينادى أين هود ؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنَّبيّ ﷺ وخيار أمته فيتلو : ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣] فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح .

ثم ينادى : يا صالح ، ويا ثمود ، فيأتون فيستشهد صالح عندما ينكرون ، فيتلو النَّبيّ ﷺ ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤١] إلى آخر القصة . فيفعل بهم مثلما فعل بغيرهم ، ولا يزال يخرج أمة بعد أمة ، وقد أخبر عنهم القرآن بياناً ، وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى : ﴿ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ وفي ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية ، كقوم تارخ وتارح ودوحا وأسرا ، وما أشبه ذلك ، =

= حتَّى ينتهي النداء إلى أصحاب الرَّسِّ ، وقوم إبراهيم ، وفي كل ذلك لا يُرفع لهم ميزان ولا يوضع لهم حساب وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون والترجمان يكلمهم لأنَّ الرب تعالى من نظر إليه وكلمه لم يعذبه .

ثم ينادَي بموسى بن عمران ، فيأتي وهو كأنه ورقة في ريح عاصف ، أصفر لونه واصطكت ركبتاه ، فيقول له : يا ابن عمران ، جبريل يزعم أنه بلغك الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ ، قال : نعم . قال : فارجع إلى منبرك ، واتل ما أوحى إليك من ربك ، فيرقى المنبر ، ثم يقرأ ، فينصت له كلُّ من في الموقف فيأتي بالتوراة غضة طرية على حُسنها يوم أنزلت حتَّى تتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوماً .

ثم ينادى يا داود ، فيأتى وهو يرعد ، وكأنه ورقة في ريح عاصف ، تصطك ركبتاه ، فيصفر لونه فيقول اللَّه جل ثناؤه : يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور ، فتشهد له بالبلاغ فيقول : نعم يا رب . فيقال له : ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك . فيرقى ثم يقرأ وهو أحسن الناس صوتاً . وفي الصحيح أنه صاحب المزامير .

ثم ينادى المنادى أين عيسى ابن مريم فَيؤتَى به على باب المرسلين فيقول : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] . ثم يحمد تحميداً ما شاء اللَّه تعالى ، ويثنى عليه كثيراً ، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول : ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن =

= كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، فيضحك اللَّه ، ويقول : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] . يا عيسى ، ارجع إلى منبرك ، واتل الإنجيل الَّذي بلغك جبريل . فيقول نعم ، ثم يرقى ويقرأ فتشخص إليه الرؤوس لحسن ترديده وترجيعه فإنه أحكم الناس به رواية فيأتي به غَضّاً طريّاً حتَّى يظن الرهبان أنهم ما علموا به قط ، ثم ينقسم قومه فرقتين : المجرمون مع المجرمين ، والمؤمنون مع المؤمنين .

ثم يخرج النداء : أين محمد فيؤتى بهﷺ فيقول : يا محمد ، هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن . فيقول : نعم يا رب . فيقال له : ارجع إلى منبرك واقرأ ، فيتلوﷺ القرآن ، فيأتي به غضاً طرياً ، له حلاوة ، وعليه طلاوة ، يستبشر به المتقون ، وإذا وجوهُهم ضاحكة مستبشرة ، والمجرمون وجوههم مغبرة مقترة ، فإذا تلا النَّبيّ ﷺ القرآن ، توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط » .

وقد قيل للأصمعي : تزعُم أنك أحفظهم لكتاب اللَّه ، قال : يا ابن أخي يوم أسمعه من رسول اللَّه ﷺ كأني ما سمعته .

فإذا فرغت قراءة الكتب ، خرج النداء من قبل سرادقات الجلال : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : ٥٩] فيرتج الموقف ، ويقوم فيه روح عظيم والملائكة قد امتزجت بالجن ، والجن ببني آدم ، والكل لجة واحدة . ثم يخرج النداء : يا آدم ابعث بعث النار . فيقول : كم يا رب ؟ فيقال =

= له : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتَّى لا يبقى إلا قدر حفنة ، كما قال الصديق رضي اللَّه تعالى عنه : نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه وتعالى .
التذكرة [١/ ٣٣٠: ٣٣٤] .

شهادة الأنبياء والمرسلين على أممهم

في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ؛ يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

هل هذا القضاء حساب ؟ وهل سيحاسب النبيون يوم القيامة ؟ إذا تأملنا الآية فإنها تجمع بين الشهداء والنبيين ، والمعروف أن الشهداء يدخلون الجنة بدون حساب ، ففي سورة ﴿ يسٓ ﴾ عندما جاء العبد الصالح ليدعو الناس إلى الإيمان ، ويطالبهم باتباع المنهج الَّذي أُنزل على رسول ذلك الزمان ، وهو الَّذي جاء ذكره في القرآن في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ

عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يس] .

عندما قال الرجل الصالح ذلك ، ودعا الناس إلى اتباع النبيين قتله الكفار ، فماذا قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس] .

أي أن اللَّه سبحانه قَسَمَ له دخول الجنة ساعة استشهاده ، ولم ينظره إلى يوم القيامة ، والدليل على ذلك أن الآية تقول : ﴿ . . . يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، ولو كان هذا القضاء في الآخرة لما قال الرجل : ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ، لأنَّه في هذه الحالة ، وفي يوم الحساب ، سيعلم قومه جميعاً بدخوله الجنة .

إذن . . فاللَّه سبحانه وتعالى قَسَمَ الجنة للشهداء ساعة الاستشهاد ، وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وما داموا أحياء عند ربهم ، والحياة عند اللَّه هي الحياة الخالدة الَّتي لا موت فيها ، وما داموا هم

ينعمون في هذه الحياة الخالدة الباقية ، فقد قَسَمَ اللَّه لهم الجنة ساعة استشهادهم ، بينما أُجِّلَ باقى خلق اللَّه إلى يوم القيامة .

هذه هي منزلة الشهداء عند اللَّه سبحانه وتعالى ، والنبيون منزلتهم أعلى من الشهداء ، لأنَّهم مقدَّمون في الآية الكريمة : ﴿ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ، أي : أنهم يسبقون الشهداء ، ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليحاسبوا على أعمالهم ، ولكن ليكون كل نبي شهيداً على أمته ، وتكون الأمة شاهدة على أن الرسول قد بلغ الرسالة ، وبذلك يحضر الشاهد والمشهود ، وفي هذا يكون هناك تقريع للعاصين ، حتَّى لا يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول قد بلغ وحتَّى يكون هذا التقريع أمام خلق اللَّه كلهم [١] .

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾ [الأعراف] .
أخرجه البخاري [٤٤٨٧] ، والترمذي [٢٩٦١] ، وابن حبان في صحيحه [٦٤٧٧] ، وأبو يعلى [١١٧٣] عن أبي سعيد الخدرى رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُدعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل=

إن الأنبياء معصومون ، وليس هناك حساب لمن عصمهم اللَّه من المخالفات والذنوب والمعاصى ، وإنما شهادة على أن الرسول قد بلغ ، وتقريع لأولئك الذين حرفوا المنهج أو خالفوه ، ولذلك فإنك لو تأملت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

= بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمدٌ وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ فذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وروى ابن ماجه [٤٢٨٤] ، وأحمد في المسند [٣/ ٥٨] ، والنسائي في الكبرى [٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٧] عن أبي سعيد رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يجيء النَّبيّ يوم القيامة ومعه الرجلُ ، ويجيء النَّبيّ ومعه الرجلان ، ويجيء النَّبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثرُ من ذلك فيقال له : هل بلغت قومَك ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمدٌ وأمته فتدعى أمةُ محمد ﷺ فيقال : هل بلغ هذا ؟ فيقولون : نعم . فيقول : وما علمكم بذلك ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا ﷺ بذلك أن الرُسلَ قد بلغوا فصدقناه . قال فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] » .
وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٤٥٧] ، والأرناؤوط في المسند [١١٥٥٩] .

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ [المائدة : ١١٦] .

وتدبرت قول عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

لأيقنت أن عيسى عليه السلام سيكون شاهداً يوم القيامة على أولئك الذين اتخذوه إلهاً ، ويقر بأنهم خالفوا منهجه الَّذي أمرهم به، وهو عبادة اللَّه تعالى وحده ، وهكذا الأنبياء جميعاً ، فكل نبي يكون شهيداً على أمته بالمنهج الَّذي بلغه ، حتَّى لا يستطيع أحد أن يجادل ويقول : إن الرسول قد قال هذا : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] .

وهكذا يجعل اللَّه سبحانه وتعالى العصاة والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون .

هذا هو الأصل في مجيء النبيين والشهداء ، فهؤلاء لا يحاسبون لأنَّ اللَّه قد كتب لهم أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، بل إنهم صلوات اللَّه وسلامه عليهم ، يشفعون لغيرهم يوم القيامة .

فرسول اللَّه ﷺ يقول : « شفاعتي لأهل الكبائر من

أمتى »[(١)] ، لذلك فإنَّ كل من ينكر شفاعة الرسل نقول له اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النجم : ٢٦] .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [النجم : ٢٦] .

واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة : ﴿ إِلَّا ﴾ معناها أن هناك استثناء ، فإلا حرف استثناء ، وإذا كان اللَّه سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أنه يستثنى من خلقه من يشاء ليكونوا شفعاء ، فإنَّ أجدر الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء اللَّه ورسله ، الذين اختارهم ليبلغوا منهجه إلى البشر .

---

(١) رواه أبو داود [٤٧٣٩] والترمذي [٢٤٣٥] ، وأحمد في المسند [٣/ ٣١٢] ، والبيهقي في الكبرى [٨/ ١٧/ ١٥٦١٦] ، والحاكم في المستدرك [١/ ٦٩] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥] . ورواه ابن ماجه [٤٣١٠] ، وابن حبان في صحيحه [٦٤٦٧] عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه .

ورسول اللَّه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والمرسل إلى الناس كافة ، جعل اللَّه تبارك وتعالى له الشفاعة العظمى ، لأنَّه لم يرسل إلى قوم بعينهم كباقى الرسل ، وإنما أرسل إلى العالمين ، ولذلك فإنَّ أمته هي أكثر الأمم عدداً ، وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعاً ، إذن . . فالشفاعة مثبتة لرسول اللَّه ﷺ بنص القرآن الكريم [١] .

(١) راجع فصل الشفاعة من هذا الكتاب .

تمنِّي الكافر
والعاصي أن تسوَّى بهم الأرض

قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] .

ساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف ؛ والمحذوف هنا أكثر من جملة ، ويصبح المعنى : يوم إذْ نجيء من كل أمة بشهيد ، وتكون أنت عليهم شهيداً ، في هذا اليوم : ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ ﴾ لأنَّهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول ﷺ مجرد كلام ينتهي ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ ، وما معنى : ﴿ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ ؟ كما تقول : سأسوِّي بفلان الأرض ؛ أي تدوسه دوسة بحيث يكون في مستوى الأرض .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فكيف لا يكتمون اللَّه حديثاً ؟ وهو قد قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

قال الحق ذلك عنهم لأنَّ الأمر له مراحل : فمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] . وسيقولون عن الأصنام الَّتي عبدوها : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] .

إذن . . فقوله : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه ، فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه ، والواحد منهم في الآخرة لا يقدر أن يكتم حديثاً ؛ لأنَّ ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبألسنتهم وبجوارحهم ؛ لأنَّ النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن . . فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ لأنَّ هناك ما نسميه : « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن

هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه ، ولكي نقرب الصورة ؛ عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد ، وبعد ذلك قامت الكتيبة في مهمة ، والقانون العام في هذه المهمة أن يجعل لهذا القائد قادرية الأوامر ، وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب في فصل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر إنهم يقدرون أن يقولوا : هو الَّذي قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى . فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره . فإرادة الطائع إطاعة أمر ، واجتناب نهى ، وإرادة العاصي على العكس ؛ لا يطيع الأمر ، ولا يتجنب المنهى عنه ، فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشت ، ولسانه نطق لِلرَّجُلِ الَّذي يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح الَّتي تقوم بهذه العملية هي خاضعة لقادرية

إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة ، تقول له : يا رب هو عمل بي كذا وكذا ، لماذا ؟ لأنَّ قادرية الإرادة امتنعت في ذلك اليوم الَّذي قال اللَّه تعالى فيه : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] .

وليس لى ولا لأحد إرادة في الآخرة ، وما دام ليس لى إرادة ، فاليد تتكلم وتعترف : عمل بي كذا وكذا ، وكنت يا رب مقهورة لقادرية إرادته الَّتي أعطيتها له ، فبمجرد ما يريد فأنا أنفذ ، عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع ويعترف اللسان بسبّه لفلان ، أو مدحه لآخر .

إذن . . فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح . لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات اللَّه بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة ؛ لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة ، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت : ٢١] .

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [النساء : ٤٢] .

لأنَّ الكافر سيقول : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [النبأ : ٤٠] .

شهادة أعضاء الإنسان عليه

علمنا أن هناك حياة لكل ما خلق اللَّه في هذا الكون ، حياة قد نجهلها وحياة قد نعرف منها شيئاً ، ونجهل أشياء ، وحياة قد نعرفها كلها ؛ ولكن لكل ما خلق اللَّه في هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة ، فلا نستغرب قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ . . . ﴿٢١﴾ ﴾ .

لأنَّ الجلود هي من خلق اللَّه سبحانه وتعالى ، ولها لغة تسبح بها ، ولكن لا نفهمها ولا نسمعها ، وكذلك العين والأذن والأنف ، وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة للَّه طائعة له ، ولكنها مسخرة لنا بأمر اللَّه تعالى فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً ، أو رجلاً أعمى ، حتَّى وإن أردت أن أبطش بها ضعيفاً فلا تعصيني .

واللسان في الحياة الدنيا مسخر لى ، فأستطيع أن أقول به الحق ، وأن أقول به الكذب ، وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر ، وهو في كل هذا يطيعني .

وكذلك كل أعضاء الجسد ، فإذا جاءت الآخرة ، انتهى هذا التسخير وزال وأصبح اللسان الَّذي كان مسخراً لخدمتى في الحياة الدنيا بأمر اللَّه ، شاهداً عليَّ ، وكذلك العين ، والجلد . . إلخ .

وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد بالحق [١] بما

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] .
وقال : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٢٤] .
وقال : ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ ﴾ الآية .
وروى من حديث معاوية بن حيدة القرشى أن النَّبيّ ﷺ قال : « تأتون يوم القيامة وعلى أفواهِكم الفدامُ ، أول ما يعرب عن أحدكم فخذه [١] ، وفي رواية : فخذه وكفه »[٢] . =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ٤٤٦] والنسائي في الكبرى [١٩/ ٤٣٩/ ١١٤٣١] . والطبراني في الكبير [١٩/ ٤٢٦/ ١٠٣٦] .
(٢) رواه أحمد في المسند [٥/ ٤] ، والطبراني في الكبير [١٩/ ٤٠٧/ ٩٦٩] .

فعلت في الدنيا من معاصٍ ، ويعلمنا اللَّه تعالى لغتها ، فنسمع لشهادتها علينا .

= وأَخرجه مسلم [٢٩٦٩/ ١٧] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه قال : « كنا عند رسول اللَّه ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟ » قال : قلنا : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربه ، يقول يا رب ، ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول بلى ، قال : فيقول فإنِّي لا أجيز على نفسى إلا شاهداً مني . قال : كفى بنفسِك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيهِ ، فيقال لأركانه انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام . قال : فيقول بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً ، فعنكن كنت أُناضل » .

وروى الترمذي [٢٤٢٨] عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « يؤتَى بالعبد يوم القيامة فيقول اللَّه له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام ، والحرث ، وتركتك تَرْأَسُ وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومَك هذا ؟ فيقول لا . فيقول : « اليوم أنساك كما نسيتني » . وقال هذا حديث صحيح غريب . وأخرجه البخاري [٣٣٣٤] ، ومسلم [٢٨٠٥/ ٥١] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : « إن اللَّه يقول لأهون أهل النار عذاباً لو كان لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدى به ؟ قال : نعم . قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بى ، فأبيت إلا الشرك » . =

= قال القرطبي : قوله عليه السلام : « فأول ما يتكلم من الإنسان فخِذُه » يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزى على ما نطق به الكتاب في قوله : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية : ٢٩] لأنَّه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش ، ويخلو قلبه عندها من ذكر اللَّه تعالى ، فلا يفعل ما يفعل خائفاً مشفقاً ، فيجزيه اللَّه بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد .

والوجه الآخر : أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ، ولا يعرف بما ينطق به ، بل يجحد ، فيختم اللَّه على فيه عند ذلك وتنطق منه الجوارح الَّتي لم تكن ناطقة في الدنيا ، فتشهد عليه سيئاته ، وهذا أظهر الوجهين . يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم ، لم شهدتم علينا فتمردوا في الجحود فاستحقوا من اللَّه الفضحَ والإخزاء . نعوذ باللَّه منهما .

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي : اليوم أتركك في العذاب كما تركت عبادتى ومعرفتى .

فإنَّ قيل : فهل يلقى الكافر ربه ويسأله ؟ قلنا نعم . بدليل ما ذكرنا . وقد قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ٦] . في أحد التأويلين . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٣٠] . وقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : ١٨] ، وقال : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف : ٤٨] ، الآيتين . وقال : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ =

= [الغاشية] . وقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٢، ١٣] . والآى في هذا المعنى كثيرة .

فإذا قيل فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ وقال عليه السلام : « يخرج عُنُقٌ من النار فيقول : وكِّلت بثلاثٍ : بكلِّ جبار عنيد وكل من جعل مع اللَّه إلهاً آخر ، وبالمصورين » [(١)] .

قلنا : هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب وتطاير الكتب في اليمين والشمال وتعظيم الخلق كما تقدم ، ويدل عليه قوله : « وبالمصورين » فإنهم وإن كانوا موحدين ، فلا بدَّ لهم من سؤال وحساب ، وبعده يكونون أشد الناس عذاباً . وإن كانوا كافرين مشركين ، فيكون ذكرهم تكراراً في الكلام .

على أن نقول : قال بعض العلماء : ذكر اللَّه تعالى الحساب جملة وجاءت الأخبار بذلك ، وفي بعضها ما يدل على أن =

(١) وروى أحمد في المسند [٢/ ٣٣٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال :

قال رسول اللَّه ﷺ : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، وأذنان يسمع بهما ، ولسان ينطق به ، فيقول : إنِّي وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من ادعى مع اللَّه إلهاً آخر ، والمصورين » .

وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

= كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب فصار الناس إذاً ثلاث فرق : فرقة لا يحاسبون أصلاً ، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً وهما من المؤمنين ، وفرقة تحاسب حساباً شديداً ، يكون منها مسلم وكافر ، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة اللَّه . فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب اللَّه . فيدخله النار بغير حساب .

وقد ذكر ابن المبارك في رقائقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس ، أن بعد أخذ النار هؤلاء ، تنشر الصحف ، وتوضع الموازين ، وتدعى الخلائق للحساب . فإنْ قيل فقد قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] .

وقال : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧٧] وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار . قلنا القيامة مواطن : فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فلا تتناقض الآى ، والأخبار ، واللَّه المستعان .

قال عكرمة : القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها .

وقال ابن عباس : لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لم عملتم كذا وكذا ؟ والقاطع لهذا قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر] .

قال أهل التأويل عن لا إله إلا اللَّه : وقد قيل إن الكفار=

= يحاسبون بالكفر باللَّه الَّذي كان طول العمر دثارهم ، وشعارهم ، وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها فإنهم يبكتون عليها ، ويسألون عنها وعن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت] . والآى في هذا المعنى كثيرة ، ومن تأمل؟ سورة المؤمنين ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلى آخرها تبين له الصواب في ذلك . والحمد للَّه على ذلك .

وذكر ابن المبارك عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما : أن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة : تنشر الصحف ، وتوضع الموازين ، ويُدعَى الخلائق للحساب .

فإنْ قيل : فقد ذكر اللالكائي في سننه عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت : « لا يُحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة » قالوا : ولأنَّ الحساب إنما يراد للثواب والجزاء ، ولا حسنات للكافر فيجازى عليها بحسابه ، ولأنَّ المحاسب له هو اللَّه تعالى ، وقد قال : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة : ١٧٤] . قلنا : ما روي عن عائشة قد خالفه غيرها في ذلك للآيات والأحاديث الواردة في ذلك وهو الصحيح ، ومعنى ولا يكلمهم اللَّه أي : بما يحبونه ، قال الطبرى وفي التنزيل : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] وقد=

= قيل إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ، ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٣٩] ؛ سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين أي : إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة ، أن يقال ما كان دينك ، وما كنت تصنع في الدنيا حتَّى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً لكن المؤمنين يكونون ناضرى الوجوه ، منشرحى الصدور . ويكون المشركون سود الوجوه ، زرقاً ، مكروبين . فهم إذا كلفوا سَوْقَ المجرمين إلى النار ، وتميزهم في الموقف ، كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم ، ومن قال هذا فيحتمل أن يقول : إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ونبيه ، أي إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها ، ومن قاله يحتج بقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر] .

أخبر أنه يسألهم عن أعمالهم ، وهذه الآية في الكافرين ، ومن قال يسألهم عن أصل كفرهم ، ثم عن تجريدهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات اللَّه تعالى ورسله فقد سألهم عما كانوا يعملون ، وذلك هو المراد .

التذكرة [١/ ٣٢٣ : ٣٢٧]

سؤال الكفار والمشركين

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : ٦٤] .

هاتان الآيتان تبينان لنا موقف الذين أشركوا باللَّه يوم القيامة ، بحيث يسألهم اللَّه أين شركاؤكم ؟ أحضروا ما أشركتم به ، فيتلفتون يميناً ويساراً فلا يجدون شيئاً ، فينقسم ردهم إلى قسمين :

قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على اللَّه ؛ فيقولون : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

أي : أنهم يكذبون على أنفسهم ويحسبون أنهم أفلتوا ، ولكن اللَّه يعلم أنهم كاذبون ، فتشهد عليهم

ألسنتهم بأنهم نطقوا الكذب[١] .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام والأنداد الَّتي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كما قال في سورة القصص : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : ٦٢] . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، قال ابن عباس : أي : معذرتهم . وكذا قال قتادة . وقال ابن جرير : والصواب : ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم - اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك باللَّه - ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : « أتاه رجل فقال : يا أبا عباس ؛ سمعت اللَّه يقول : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال : أما قوله : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد ، فيجحدون ، فيختم اللَّه على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون اللَّه حديثاً ، فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء ، ولكن لا تعلمون وجهه » .

وقال الضحاك عن ابن عباس : هذه في المنافقين . وفيه نظر : فإنَّ هذه الآية مكية ، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، =

أما القسم الآخر : يبحثون عن شركائهم يميناً ويساراً

= والَّتي نزلت في المنافقين آية المجادلة : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ . وهكذا قال في حق هؤلاء : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [غافر] .

وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي : أغطية ، لئلا يفقهوا القرآن ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صمماً عن السماع النافع . فهم كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] . وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي : يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما هذا الَّذي جئتَ به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ في معنى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قولان : =

فلا يجدون شيئاً ولا يجدون أحداً ، فيقولون : ﴿ ضَلُّواْ

= **أحدهما** : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وَيَنْوَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : ويبتعدون عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع . وهذا القول أظهر - واللَّه أعلم - وهذا اختيار ابن جرير .

والقول الثاني : روي عن ابن عباس قال : نزلت في أبي طالب ، كان ينهى الناس عن النَّبيّ ﷺ أن يؤذى . وكذا قال عطاء بن دينار وغيره : أنها نزلت في أبي طالب . وقال سعيد بن أبي هلال : نزلت في عمومة النَّبيّ ﷺ ، وكانوا عشرة فكانوا أشدَّ الناس معه في العلانية ، وأشدَّ الناس عليه في السر . رواه ابن أبي حاتم . ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم ، وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يذكر تعالى حال الكفار إذا وُقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا=

عَنَّا﴾ [الأعراف : ٣٧] أي تاهوا منا لا نعرف مكانهم

= ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال اللَّه تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة ، كما قال قبل هذا بيسير : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ . ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ . وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ . ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار . ولا ينافى هذا كون هذه السورة مكية ، والنفاق إنما يكون من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراف ، وقد ذكر اللَّه وقوع النفاق في سورة مكية ، وهي العنكبوت ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب ، فظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق . واللَّه أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى =

ولا يعرفون مكاننا ، ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة

= الدنيا رغبةً ومحبةً في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الَّذي عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار . ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في تمنيهم الرجعة رغبةً ومحبة في الإيمان . ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في قولهم : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي : لعادوا لما نهوا عنه ، ولقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا لا معادَ بعدها ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ أي : أوقفوا بين يديه قال : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ ؟ أي : أليس هذا المعاد بحق ، وليس بباطل كما كنتم تظنون ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليومَ مسَّه ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقاء اللَّه ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل ، وما أسلف من قبح الفعل ، ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وهذا الضمير =

كانت لهم ألوهية أو شيء من الألوهية ما تركوهم في هذا الموقف ، وهكذا يريهم اللَّه أعمالهم حسرات عليهم ، ويفضحهم أمام خلقه جميعاً ، وأمام أنفسهم حتَّى لا يستطيعوا المجادلة عند الحساب ، فلا يستطيع أولئك الذين حرّفوا منهج اللَّه أن يقولوا : إن الرسل قد بلّغونا المنهج محرّفاً وليس لنا ذنب حتَّى يحاسبنا اللَّه أو يقول أولئك الذين عبدوا غير اللَّه أن هذه الأشياء الَّتي عبدوها هي الَّتي ادّعت الألوهية ، وأنهم لا ذنب لهم فيما حدث ، بل يظهر أمام الجميع أن هؤلاء الكفار هم الذين حرّفوا ، وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة ، وهم الذين وضعوا منهجاً على هواهم ، وأن المسألة كلها من أنفسهم ، وأنهم مسئولون عما اقترفوه ، وأن الحساب بالنسبة لهم عدل .

= يحتمل عوده على الحياة ، وعلى الأعمال ، وعلى الدار الآخرة ، أي : في أمرها . وقوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : يحملون .
وقال قتادة : يعملون . وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي : إنما غالبها كذلك : ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

المواجهة والخصومة

إن المشركين الذين اتخذوا من دون اللَّه تعالى آلهة ، سيحشرون يوم القيامة فمنهم من عبده الناس ، وهو لا يدرى عن عبادتهم شيئاً ، فالشمس ، والقمر والنجوم ، والأحجار ، والأشجار ، وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم ولم يرسلوا رسلاً إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا ، أو ليبلغوهم بمنهج عبادةٍ .

فالشمس لم ترسل رسولاً مثلاً إلى من عبدوها ؛ لتدعى أنها إله ، وتطلب منهم أن يسجدوا لها ، وتقول لهم : إن منهجى كذا وكذا ، وكذلك النجوم والأحجار .

لذلك فإنَّ هؤلاء جميعاً يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم ويتجهون للَّه سبحانه وتعالى يسبحونه ، بل إن الأحجار الَّتي عبدها الناس يجعلها اللَّه سبحانه وتعالى وقوداً للنار يوم القيامة ، وتكون

الأحجار سعيدة بذلك ، وهي تحرق من عبدها من دون اللَّه وتذيقه العذاب .

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة ، فيؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد ، أمام خلق اللَّه كلهم ، من الذين اتبعوهم واتخذوهم آلهة ؛ وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

بماذا يرد عيسى ابن مريم ؟ يقول : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، أي : تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا ، فنحن جميعاً عبيدك نسبح بحمدك ، ثم يكمل عيسى ابن مريم كلامه : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ . . . ﴿١١٧﴾ ﴾ .

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً ، ويقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفى ، فإنْ كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً ، فقد علمه اللَّه سبحانه وتعالى ، وإن كان قد قاله سراً في نفسه فقد علمه اللَّه سبحانه وتعالى لأنَّه

يعلم ما تخفي الصدور ، ويكون هذا على مشهد من جميع خلق اللَّه منذ عهد آدم إلى يوم القيامة ،وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة أمام كل خلق اللَّه .

إذن . . اللَّه تعالى قادر على أن يجعل خلقه جميعاً يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب ، كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب ، وكما يرى الناس اليوم باستخدام قوانين اللَّه الَّتي وضعها سبحانه وتعالى في الكون ليروا جميعاً في وقت واحد ، وفي أماكن متفرقة ، حدثاً يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية ، وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن ، فما هي قدرة البشر بعد سنوات ، يتقدم فيها العلم ، وإذا كان بمقدور البشر صنع ذلك ؛ فما بالك بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى ؟

وفي لقطة أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ .

اللَّه سبحانه وتعالى يخاطب شياطين الجن فيقول لهم : لقد أخذتم نصيباً كبيراً من الإنس إلى جهتكم فأضللتموهم وأخذتموهم إلى طريق الفساد ، واللَّه

سبحانه وتعالى حين يخاطب الجن ويقول لهم : ﴿ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ فالجن لا يردون ، ولكن الذين يتكلمون هم الإنس الذين اتبعوا شياطين الجن ؛ وذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم ﴾ أي : المتابعون لهم من شياطين الإنس : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

إذن . . فالكلام هنا من الإنس أنفسهم ، وأيضاً عن أوليائهم من الجن ، إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيراً من الإنس إلى جانبهم ، كيف ذلك ؟ لأنَّ اللَّه سبحانه وتعالى أعطى الجن في تكوينهم ما لم يعطه للإنسان من ناحية التكوين ، فجعل الجن يرون الإنس ، بينما الإنس لا يرونهم ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

وأعطى اللَّه الجن أيضاً قوة أكثر من الإنس ، لماذا ؟ لأنَّ الإنسي مخلوق من طين ، فإمكانياته محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، بينما الجن مخلوق من نار[1] ، يستطيع أن ينفذ من الجدران

---

(١) عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : =

والسواتر الحديدية ، وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة .

ولذلك فإنَّ المخلوق من نار ، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار الَّتي تشع فيخترق إشعاعها الجدران ، بحيث تصل حراراتها إلى من يجلس وراء الجدار ، هذه بعض قوانين الجن الَّتي تختلف عن قوانين الإنسان ؛ لذلك عندما قال سليمان عليه السلام : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .

سكت الإنس الذين كانوا في مجلس سليمان ، لأنَّ نقل العرش من اليمن إلى مكان سليمان يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة ، وهذه لا تتوافر في الإنس بحكم خلقهم ، ولذلك كان أول من تكلم هو عفريت من الجن ، أما الإنسان فلم يدخل نفسه في تجربة يعلم أنه لا يستطيعها ، فسليمان قد علم أن ملكة سبأ في طريقها إليه لتعلن إسلامها ، وهو يريد من الَّذي يذهب ليأتي

= « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم » .
أخرجه مسلم [٢٩٩٦/ ٦٠] ، وأحمد في المسند [٦/ ١٥٣/ ١٦٨] ، وابن حبان في صحيحه [٦١٥٥] .

بالعرش من قصر ملكة سبأ أن يتميز أولاً بالسرعة ، الَّتي تتفوق على الإنسان بمراحل كثيرة ، لأنَّ هذا الَّذي سيذهب جالس مع سليمان ، بينما ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان ، ولذلك فلا بدَّ أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ ، ثم يفكك العرش ، ثم يحمله ويكون حريصاً عليه ، ثم يأتي به إلى سليمان . كل هذا في وقت أقل من الَّذي ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان ، والَّتي كانت قد قطعت بالفعل جزءاً من الطريق .

لم يتكلم الإنسان ولا الجن العادى ، وإنما تكلم عفريت من الجن ، مما يدلنا على أن الجن غير متساوين في القدرة ، بل إنهم متفاوتون فيها ، وعفريت الجن ، هو أقوى الجن ؛ وقال : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ، ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه ، ساعة ، أو ساعتين ، أو أكثر ، ولكن العفريت الَّذي يتكلم يعرف الزمن ، وهنا : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] ، أي قبل أن تطرف عينك ، وقبل أن يقول سليمان نعم ، وجد عرش بلقيس أمامه : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ ، أي أن

المسألة لم تتحمل حتَّى مجرد الكلام ، وهكذا إذا كان اللَّه قد خص الجن بقوانين متفوقة ، فقد أعطى بشراً من خلقه قدرة أكبر تُخضع الجن لها ، ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط ، ولكن بإرادة المكون . . الخالق سبحانه [١] .

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] . قال ابن كثير : قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان ؛ قالت : قد واللَّه عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه ، إنِّي قادمة عليك بملوك قومى ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الَّذي كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد اللَّه ، ولا يرينه أحد حتَّى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألفاً ، قيل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل=

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى ، وهو يعرض

= يوم وليلة ، حتَّى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا قال عطاء الخراساني والسدى وزهير بن محمد ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم عليّ أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال مجاهد أي : مارد من الجن ، قال شعيب الجبائي وكان اسمه كوزن ، وكذا قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وكذا قال أيضاً وهب بن منبه قال أبو صالح : وكان كأنه جبل ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنه : يعني : قبل أن تقوم من مجلسك ، وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس : أي قوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام : أريد أعجل من ذلك .

ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب اللَّه له من الملك وما سخر له من الجنود الَّذي لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأنَّ هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن=

علينا مشاهد القيامة ، أن يقول لنا : أنه أعطى الجن

= يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ، وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف ، وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة أنه كان من الإنس ، زاد قتادة من بني إسرائيل ، وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم ، وقال قتادة في رواية عنه : كان اسمه بليخا ، وقال زهير ابن محمد : هو رجل من الإنس يقال له : ذو النور . وزعم عبد اللَّه بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جداً ، وقوله : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتَّى آتيك به . فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن الَّتي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ودعا اللَّه تعالى .

قال مجاهد : قال : يا ذا الجلال والإكرام ، وقال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها ، قال : فمثل بين يديه . قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد وغيرهم : لما دعا اللَّه تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ؛ وكان في اليمن ، وسليمان عليه السلام ببيت المقدس ، غاب السرير وغاص في الأرض ، ثم نبع من بين يدى سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحمل بين يديه . قال : وكان هذا الَّذي جاء به من عباد البحر ، فلما عاين سليمان وملأه ذلك ورآه مستقراً عنده=

ميزات كثيرة ، وأنهم استخدموا هذه الميزات في التكوين في الشر والإضلال ، حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

= ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ أي : هذا من نعم اللَّه عليّ ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ﴾ أي : ليختبرني ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾ . كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت : ٤٦] . وكقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : هو غنى عن العباد وعبادتهم كريم أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبده أحد فإنَّ عظمته ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفي صحيح مسلم : « يقول اللَّه تعالى : يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد اللَّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[(١)] .

تفسير ابن كثير [٣/ ٣٥١ : ٣٥٢] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٧٧/ ٥٥] عن أبي ذر رضي اللَّه تعالى عنه .

ما معنى هذا ؟ هل استمتع الجن بالإنس ، أم استمتع الإنس بالجن ؟ كلاهما استمتع بالآخر ، استمتع الجن بالإنس في إعانته على المعاصي وما دامت شياطين الجن تعين الإنسان على المعصية ، فهذا استمتاع لها لأنَّ العداوة بين شياطين الجن والإنس منذ لحظة خلق آدم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ ﴾ [فاطر : ٦] .

فكأن إبليس وذريته عليهم لعنة اللَّه مُتعتهم في الحياة أن يقودوا الإنسان للمعصية والهلاك ؛ تماماً كما يكون لك عدو ويدبر لك مكيدة .

إذن . . حينما يقود الشيطان الإنسان إلى النار ، يكون في قمة السعادة والاستمتاع ، لأنَّ هذه هي مهمة الشيطان ، وقديماً قال أبوهم إبليس متوعداً بني آدم : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

ولكن ماذا عن استمتاع الإنس بالجن ؟ لأنَّ الجن قد زين للإنسان شهواته وذلك أن شياطين الإنس لا يعيشون بمنهج ، ولكنهم يجرون وراء شهواتهم فيأخذون المال الحرام ، ويعتدون على حرمات الناس ، ويفعلون كل ما تسوله لهم أنفسهم من ظلم

وفساد ، وفي هذا يكون الإنس الَّذي اتبع وحى شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها ، ففعل ما يريد دون وازع من ضمير أو خلق أو دين .

وهكذا يكون استمتاع الإنس بالجن استمتاعاً عاجلاً لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم ، ولذلك فإنَّ أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم ، ولكنها تنقلب وبالاً عليهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] .

أي : أتعبوهم ، والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن يأخذون رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئاً ، ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفي ذريته شذوذ : الأعور ، والأعرج ، والأكتع ؛ لماذا ؟ ليلزم كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر ، تماماً كالَّذي يستعين« بالفِتِوَّات » ليسيطر على الناس ، ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحى الَّذي كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب .

إذن . . فالإنس يردون : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

يعني : عندما كنا على قيد الحياة ، ﴿ ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، فاستمتع الجن بأنه قاد الإنسان إلى المعصية ، واستمتع الإنسان بالغوص في الملذات والحرام حتَّى جاء الأجل ، فماذا وجدوا ؟ قال لهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ .

أي أن المستمتع الأول والمستمتع الثاني في النار .

اجتماع حول جهنم

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] .

هذا مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، فيه الكفار والشياطين جاثون حول جهنم من الذل ومن الهوان ، ثم ينزع اللَّه تعالى من وسط هؤلاء ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ وهم : أئمة الكفر ، أولئك الذين كانوا يحاربون دين اللَّه في الأرض ، ويسخرون من المؤمنين ، ويسفهون منهج اللَّه ، وهم في ذلك يستخدمون كل ما لديهم من قوة ، وكل ما يملكون من وسائل فالإنسان حين يكون شديداً يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الَّذي يشغله وهؤلاء في الدنيا كانوا أشداء على كل من آمن بدين اللَّه ، يستخدمون كل ما في مقدورهم من وسائل لمحاربة هذا الدين ، والحقيقة أن الكفار هم

أغبى خلق اللَّه ، فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لأنفسهم حين يلمزون المؤمنين والمؤمنات أو يسخرون منهم ، تصور لهم عقولهم المريضة أنهم بهذا الفعل يصدون الناس عن دين اللَّه تعالى ، ولكن القهار سبحانه يستخدمهم لإثبات صدق رسله بنفس الوسيلة الَّتي تصوروا أنها لهم .

يقول الحق تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين] .

هذه صورة يعطيها اللَّه سبحانه وتعالى لنا عن موقف الكفار في الدنيا ، إنهم يسخرون من المؤمنين ، ويتغامزون عليهم ، إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث ، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج اللَّه .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، فهؤلاء الكفار إنما يثبتون منهج الإيمان ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن ، وأنه منزل من عند اللَّه سبحانه وتعالى ، لأنَّ اللَّه أخبرنا في كتابه العزيز ، بأن هؤلاء سيسخرون من المؤمنين ، وسيتغامزون عليهم في الدنيا ، ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك ، وحينئذ كنا

سنقول : إن القرآن قد قال لنا : إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا ، ولم يسخر منا أحد ، ولم يتغامز علينا أحد ، ولكن كونهم سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج اللَّه لأنَّهم فعلوا ما أنبأنا اللَّه أنهم سيفعلونه ، وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج ، لأنَّهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا اللَّه أنهم سيفعلونه ، ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال ، بل كلما تحدث . . يقول المؤمن : سبحان اللَّه ، لقد أخبرنا اللَّه أنهم سيفعلون وفعلوا .

فصدق اللَّه العظيم ، وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه ؛ تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

فإذا جاء المضلون ليحدثونا بنظريات تتعارض مع كلام اللَّه عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، نقول : لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا اللَّه عن المضلين الذين سيجادلون في الخلق . . فأين هم ؟ ولكن كونهم جاءوا وضللوا الناس بما قالوه ؛ من أن الإنسان أصله

قرد ، وأن السموات والأرض أصلها كذا وكذا ، محاولين بذلك التشكيك في منهج اللَّه ؛ نقول لهم : لقد ثبَّتم المنهج في قلوبنا ، لأنَّ اللَّه قد أخبرنا بما ستفعلونه ، وجئتم أنتم تصديقاً لمنهج اللَّه وفعلتموه ، فشكراً لكم لأنكم كنتم دليلاً على صدق المنهج .

تزييف الحق وتزيين الباطل

يثور جدل في الآخرة بين الذين أشركوا ، والذين زينوا لهم الباطل ، فيقول الذين أشركوا : ﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ ، أي : تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفاً ، فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم : ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ٢٩] .

أي : أنه لو كان الإيمان في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان ، وما استمعتم إلينا ، وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من اللَّه ، دون أن تبحثوا عن أسباب أخرى ، فيكفى أن اللَّه سبحانه وتعالى قد قال لنطيع ، والذين يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية ، وبأنه يسبب السرطان وغيره ، نقول لهم : لو امتنعنا من أجل هذا المنطق فقط ما كنا مؤمنين ، ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأنَّ اللَّه قد حرّمه ، ولو كان لحم الخنزير يشفى كل أمراض الدنيا ما أكلنا منه ،

لأنَّه ما دام اللَّه تعالى قد حرّمه فنحن نطيع أمر اللَّه سبحانه ، ولا ننتظر حتَّى نعرف الحكمة من التحريم لكي نمتنع .

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة الَّتي يسببها لحم الخنزير ، ولكنهم امتنعوا عنه لأنَّ اللَّه حرّمه ، وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم اللَّه له ، دون أن يجهدوا أنفسهم في معرفة العلة من التحريم .

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لا بدَّ أن نعرف العلة والسبب ، لكان هذا منطقاً دنيوياً ، وليس عبادة للَّه ولا يدخل في منطق الإيمان ، واللَّه سبحانه وتعالى يريدنا مؤمنين به إلٰهاً ، ويكفينا أن يقول إفعل لكي نفعل .

إذن . . فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس ، ليحلوا ما حرم اللَّه تحت أي ادعاء من الادعاءات ، نقول لهم : إن هذا المنطق هو الَّذي يتخذه بعض مدَّعيي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين ، فهم يحلون ما حرمه اللَّه تحت ادعاءات مختلفة ، وأتباعهم هم أولئك الذين في قلوبهم زيغ ، وميل للمعصية ، وحب لاتباع الشهوة ، لذلك لا تجد مذهباً من هذه المذاهب المنحرفة إلا وهو قائم على تحليل ما حرمه اللَّه ، وبمنطق الإيمان المزيف .

فنجد مثلاً البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب الَّتي تريد أن تحل ما حرم اللَّه ، إنما تقوم بذلك بادعاءات زائفة ، وتفسيرات منحرفة ، ولذلك فهي تحاول أن توهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول اللَّه ﷺ الَّذي نزل عليه هذا القرآن ، أو من المسلمين الأوائل ، ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر ، أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان ، بل كلها تدعى زيفاً أن خطها هو الإيمان الصحيح ، وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

أي : كنتم تزيفون لنا الأحكام ، فتحلون الحرام ، وتحرمون الحلال ، ويفضح اللَّه سبحانه وتعالى أتباع هؤلاء في قوله تعالى : ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ [الصافات : ٣٠] .

أي : أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم ، فلما قالوا لكم ما قالوه لم تتبعوهم بمنطق الإيمان ، بل اتبعتموهم لأنَّ كلامهم صادف هوى في نفوسكم ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما استطاع أحد أن يستميلكم تحت أي شكل من الأشكال .

حوار الضعفاء . . والمستكبرين

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى ، وهو الحوار الَّذي سيدور بين الكافرين في النار : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ .

فالحوار هنا بين الكافرين ، جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات ، ماذا قالوا لهم ؟ قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

أي : نحن كنا نتبعكم في الدنيا ، وكنا نفعل ما تأمروننا به ، وننفذ كل ما تطلبونه منا ، فهل تستطيعون أن تنجونا اليوم من عذاب النار ؟ هذا مظهر من مظاهر العجز البشرى يوم القيامة ، يقصه اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، لنعرف أن هؤلاء الذين يغووننا

للمعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة ، أو يخففوا عنا يوماً من عذاب اللَّه .

هؤلاء المتكبرون والسادة مهما كان لهم من سلطان وقهر في الدنيا ، فإنَّ ذلك لن يغنى عنهم شيئاً في الآخرة ، ولن يعطيهم قدرة ولا قوة ، وفي ذلك نجد أن بعض الناس يتجرأون على دين اللَّه بالباطل ، ويفتون بغير الحق ، وإذا ما عارضهم من عنده شيء من العلم ، أو بقية من فطرة صحيحة ، يقولون له : إفعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة لو كان هناك وزر !! ويكون هذا الكلام بالطبع دفعاً للنفس المترددة في ارتكاب المعصية ، فإياكم أن تصدقوا هذا الكلام .

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزراً فوق أوزارهم أو معاصيهم ، ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك إثم ، وعليك عقاب وستحمل وزرك يوم القيامة ، ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك : إفعل هذا والإثم على ، أو إفعل هذا وسأحمل وزرك ، بل على مشهد من أهل الموقف جميعاً ، لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية ، ويكون أولئك الذين ارتكبوها

بلا معصية ، بل هذا يحمل وزر ما فعله كاملاً ، والآخر يحمل وزره ووزر الَّذي أضله . هؤلاء عندما يقفون أمام اللَّه للحساب : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ [سبأ : ٣١] .

أي : هذا يلقى اللوم على هذا ، وهذا يلقى اللوم على هذا حتَّى تصبح الفضيحة على رؤوس الأشهاد ، وترى المحبة الَّتي كانت بينهم على الشهوات قد ذهبت وانتهت ، فهناك نوعان من المحبة في الدنيا : أُناس أحبوا بعضهم في اللَّه ، وللَّه ، يذهبون للمسجد معاً ، ويتدارسون العلم معاً ، ويقرأون القرآن معاً ، وإذا ارتكب أحدهم معصية ، نصحه الآخرون ومنعوه .

ومحبة أخرى بين الناس الذين يلتقون على الشهوات ، يشجع بعضهم البعض على المعصية في مجالسهم ، هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء ، ولكن الذين اجتمعوا على الإثم والمعصية إذا وقفوا أمام اللَّه صاروا أعداء ، هذا يلقى اللوم على ذاك ، وذاك يلقى اللوم على الآخر ، فالمحبة الَّتي كانت بينهم على الشهوات انتهت ، يتلاومون ويحاول كل منهم أن يلقى باللوم

على الآخر ؛ ويقول الضعفاء فيهم للذين استكبروا : ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : ٣١] .

هنا يحاول كبراء القوم وسادتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم : لو أن في قلوبكم هداية لاهتديتم .

ولكن ما معنى الهداية ؟ الهداية هي أقصر طريق يؤدي إلى الغاية ، واللَّه سبحانه وتعالى قد أوجد في الدنيا نوعين من الهداية : هداية دلالة : وهذه للناس جميعاً ، للمؤمن والكافر ، أي أن اللَّه سبحانه وتعالى : يبين للناس ، كل الناس ، طريق الهداية في منهجه ، ولذلك أرسل سبحانه الرسل ، وأنزل الكتب لئلا يكون للناس على اللَّه حجة ، ليس هذا فقط ، بل إن اللَّه تعالى يرسل على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها [١] .

والهداية الثانية : وهي الزيادة في الهداية للذين آمنوا باللَّه تعالى ، وصدقوا برسله ، فيزيدهم اللَّه هدى ويعينهم عليه ؛ ويحببهم في الإيمان ، ويثبت قلوبهم

(١) رواه أبو داود [٤٢٩١] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٦٠٦] .

عليه مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[١] [محمد : ١٧] .

---

(١) قال العلامة ابن القيم : فالهداية : هي البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة . ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل . فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ، ترتب عليه هداية التوفيق . وجَعْل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه ، وتزيينه في قلبه ، وجعله مُؤْثراً له ، راضياً به ، راغباً فيه . وهي هدايتان مستقلتان ، لا يحصل الفلاح إلا بهما ، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً ، وإلهامنا له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً . ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم . ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة .

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، وبطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟ فإنَّ المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم . وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً ، مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك . وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله ، فأمر يفوته الحصر . ونحن محتاجون إلى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الأمور ، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدى في هذه الدار إلى صراط اللَّه المستقيم الَّذي أرسل به=

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا

= رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه . وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الَّذي نصبه اللَّه لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم . وعلى قدر سيره على هذا الصراط ، يكون سيره على ذلك الصراط . فمنهم من يمركالبرق ، ومنهم من يمر كالطَّرْف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردَس[١] في الناس . فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حَذْو القُذَّة[٢] بالقذة جزاء وفاقاً : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ولينظر الشبهات والشهوات الَّتي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم ، فإنها الكلاليب[٣] التى بجَنْبتى ذلك الصراط ، تخطفه =

(١) الكردسة : الوثاق . والرجل المكردس : الَّذي جُمعت يداه ورجلاه وأُلقى إلى موضع .

لسان العرب [٦/ ١٩٦] .

(٢) القذة : ريشة الطائر والنسر والصقر ، بعد تسويتها وإعدادها لتُرَكَّبَ في السهم .

الوسيط [٧٢١] .

(٣) جمع كلُّوب وهو حديدة معطوفة الرأس يُعلق فيها اللحم وترسل في التنور .

شرح النووي على مسلم [٢/ ٣٠] .

عن هداية الدلالة ، فهم يقولون لهم : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ [سبأ : ٣٢] .

أي : أن اللَّه سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية ودلكم عليه ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان في استطاعتنا أن نخرجكم عنه أو نمنعكم منه ، ذلك لأننا مهما فعلنا فإنَّ قوة الإيمان في قلوبكم ، كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا في طريق الهدى ، وكان اللَّه سيعينكم على ذلك .

﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ : ٣٢] . أي أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة ، وكنتم تريدون المعصية ، فما إن أغريناكم حتَّى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصي بحبكم للشهوات ورغبتكم فيها ، وإلا لو كان في قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا .

ويرد الذين استضعفوا عليهم في يأس وحسرة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ .

= وتعوقه عن المرور عليه : فإنْ كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] . فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير ، والسلامة من كل شر .
بدائع التفسير [١/ ١١٦ : ١١٧] .

أي : إنكم كنتم تقعدون لنا ليلاً ونهاراً لتزينوا لنا المعصية ، وتزينوا لنا عبادة غير اللَّه ، أنتم الذين كنتم ليلاً ونهاراً تأتون إلينا تمدوننا بالمال لنكفر ، وتعدوننا بالمكافآت لنرتكب المعاصي ، وتبينون لنا ليلاً ونهاراً طرق الإغواء ، ولا تملون أبداً حتَّى استجبنا لإغوائكم وعصينا ، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ [سبأ : ٣١] .

الشيطان خطيباً !

قال اللَّه تبارك وتعالى واصفاً الحالة الَّتي سيكون عليها الشيطان وتابعوه وكيف سيتبرأ الشيطان منهم ، وأنه لا حول له ولا قوة : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

إن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة في يوم الحساب فشياطين الجن وشياطين الإنس قالوا : إنهم استمتعوا ببعضهم في الحياة الدنيا فقضى اللَّه بأن النار هي مصيرهم ومثواهم ، فعندما قُضى الأمر ، التفت شياطين الإنس إلى إبليس الَّذي قادهم إلى هذه الهاوية ، التفتوا إليه يستنجدون به من النار الَّتي سيقذفون فيها ؛ ماذا قال إبليس ؟ قال الحقيقة ، لأنَّ حياة الخداع قد

انتهت ، وقد أصبحنا في مرحلة اليقين ، لم يعد هناك ظن ولا غيب ، فقد كشف اللَّه حجب الغيب للناس ، وانتهت مهمة إبليس ، فإبليس طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث حين قال لعنة اللَّه تعالى عليه : ﴿ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] ، أي : يا ربي أعطني مهلة إلى يوم البعث ، قبل أن أخلد في العذاب ، وذلك حين رد إبليس الحكم على اللَّه تعالى يوم قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] . وقال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾[1] [الإسراء : ٦١] .

إذن . . هو قد رد الأمر على اللَّه . ومن ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانياً هاماً بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج اللَّه ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج اللَّه حق ، ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج ، أما أن نرد الحكم على اللَّه ونقول : إن الربا حلال ، وإن قطع يد السارق حرام ، نقول لكل من ينهج هذا السلوك : لا

---

(١) راجع ذلك في قصة نبي اللَّه آدم عليه السلام وهي ضمن المجلد الأول من كتاب : « قصص الأنبياء » للشيخ الإمام ، وهي درة فريدة في موضوعها .

ترد الحكم على اللَّه فتكون في صف إبليس مطروداً من رحمة اللَّه ، ولكن قل : إن كل ما في منهج اللَّه حق ، ولكنَّني لا أستطيع أن أحمل نفسى على هذا الأمر ، أو أن اللَّه يتوب على من فعل كذا أو كذا ، فبدلاً من أن تكون كافراً إن رددت الحكم على اللَّه ، تكون عاصياً إن أقررت بذنبك ، وبخطئك ، ويمكن أن تستغفر لمعصيتك فيغفر لك اللَّه ، وأن تتوب منها فيتوب اللَّه عليك ، أما أن ترد الحكم على اللَّه فهذا كفر .

إذن . . فقد انتهت المهلة الَّتي أعطاها اللَّه سبحانه وتعالى لإبليس ، وجاء اليوم الَّذي يحاسب فيه ، ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئاً ، فلم يعد هو قادراً على غواية الإنسان ، ولم يعد الإنسان مخدوعاً فيه ، انتهى كل هذا . لأنَّ الحياة أصبحت غير الحياة ، ولم يعد الشيطان يستطيع أن يغوي أحداً في يوم البعث ، فها هي النار والجنة والجزاء والحساب ، فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق ، لأنَّه لو كذب فإنَّ كل ما هو حادث يكذبه ، ولم يعد الموقف يسمح بالكذب ، والشيطان يرى جهنم الَّتي سيلقى فيها، ويخلد إلى الأبد في هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الإنسان أن يقول إلا الصدق ، تماماً

كساعة تنفيذ حكم الإعدام على القاتل ، وهو يقاد إلى المشنقة ، هل في هذه الحالة هو صالح للكذب ؟ إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا بالحق ، فما بالك وإبليس يواجه عذاب اللَّه ؟

إن قول الشيطان عليه لعنة اللَّه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] . اعتراف منه بأن وعد اللَّه تعالى كان حقاً ، ووعده الشيطانى الَّذي وعد به الإنسان ومنَّاه كان كذباً ، فإنه كان يمنِّي الإنسان ويغويه بالأكاذيب ليرتكب المعاصي ، ويزين له العمل السيىء .

إذن . . الشيطان يعترف أنه ظل يغوي الإنسان حتَّى يعتقد زيفاً أنه سيفلت من عقاب اللَّه ، أو أن العذاب سيكون يسيراً ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة وعندما يأتي الإنسان ليتوب ، يأتي الشيطان فيقول له : أجّل التوبة حتَّى تتقدم بك السن ، ثم بعد ذلك لا يمهل الأجل الإنسان ، وكل إنسان لديه امتدادات في الأمل ، بمعنى : أنه لو لم يحقق ذلك اليوم ، فإنه سيحققه غداً ، وهناك آمال كثيرة في حياة الناس قد لا تتحقق أبداً ، ولكننا نعيش على أمل أنها ستحقق ومهمة

الشيطان أن يعطى للإنسان الأمل الكاذب ، الأمل الَّذي لن يتحقق فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلاً ، ويمنيه بأنه سيفعل كذا ، وسيحقق كذا بالمال الحرام ، وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه بالكوارث والأمراض ، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت .

ثم يقول الشيطان لأوليائه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

والسلطان هو : إما قوة القهر ، أي : أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الإنسان على المعصية ، أو إما أن يكون قوة مادية تقهر ، بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض ، فأقيده بالسلاسل ، وأحمله إلى هناك ، أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعني ، فأحضر بعض أعوانى بالعصى والسياط فيلهبون ظهره حتَّى يفعل ما أريد .

أو يكون السلطان هو سلطان الحجة ، كأن تأتي للإنسان وتظل تتحدث معه حتَّى تقنعه بأن يقوم بالعمل الَّذي تريده ، فيقتنع اقتناعاً يجعله يفعل ما تريده منه ، ولكن باختياره .

كلاهما سلطان ، سواء اتبعت القهر ، أو اتبعت الحجة والإقناع ، والشيطان لا يستطيع أن يقهر إنساناً على معصية بالقوة والقهر ، وليس للشيطان حجة ليقنع بها الإنسان ، ليجعله يرتكب المعصية بحجة الإقناع ، ولكن لا بدَّ أن يوجد في داخل النفس أولاً هوى ورغبة للمعصية ، فيأتي دور الشيطان فيزين له المعصية ، كأن يكون الإنسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال ، حينئذ يأتي الشيطان ليزين له المال الحرام ؛ ويقول : إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية الَّتي تتمناها ، ويظل يوسوس له بذلك حتَّى يسرق ، أو يزين له جمال امرأة مستهترة ، فيقع فيما حرمه اللَّه تعالى عليه .

إذن . . الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بمشهد الحوار الَّذي سيدور بين إبليس وشياطين الإنس ، وأن الشيطان سيقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ .

أي : أنه لم يكن الشيطان يملك سلطان القهر ، ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية ، ولكن شهواتهم الَّتي في داخلهم هي الَّتي قادتهم لهذا ، لذا عندما يتجه شياطين الإنس إلى إبليس باللوم ، يقول : ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ ؛ أي : أنكم لو لم يكن عندكم حب

للشهوات في داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم ، فلا توجهوا لى اللوم ، بل وجِّهوهُ إلى أنفسكم .

ثم يقول : ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ .

والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوي الإنسان على مواجهتها بمفرده ، بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها ، فإذا شب حريق في البيت مثلاً ، وكان الحريق صغيراً يمكنني أن أسيطر عليه ، حينئذٍ لا أصرخ طالباً النجدة ، وإنما أقوم بإطفاء الحريق بإمكانياتى ما دمت واثقاً أنَّني أستطيع ، ولكن إذا كان الحريق كبيراً لا أستطيع بقدراتى أن أتغلب عليه ، فإنَّني في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة ، لأنَّني أواجه حدثاً أقوى من قدراتى ، فأنا محتاج إلى عون الآخرين ، وإذا هاجمنى لص مثلاً في الطريق ؛ فإذا كنت قوياً فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده ، ولكن إذا كان اللص أقوى مني ، فأنا في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة حتَّى يعينني الناس عليه .

ونلحظ في حياتنا أنه حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان :

نوع لا يجد في نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل ، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده ، كأن يهاجمنى

لص قوي وأصرخ طالباً النجدة ، ويكون الَّذي يمر شيخاً كبيراً لا يكاد يقوي على السير ، حينئذ فإنه لا يجيب على صرختى ، لأنَّه لا يستطيع أن يقدم العون ، فهو شيخ ضعيف كبير السن .

ونوع آخر يجد في نفسه القدرة على النُّصرة ، فيأتي إليَّ ويساعدنى في أن أتغلب على ما ألم بى ، حينئذ يُقال : أصرخه فلان ، أي أزال سبب صراخه . والشيطان في يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحداً ، أي : لا يستطيع أن ينقذ أحداً من النار ، ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أي : ينجيه من العذاب الَّذي ينتظره ، لذلك يقول الشيطان للعاصين في ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة : لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب ، ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى من الخلود في النار ، فكلانا عاجز أمام قدرة اللَّه سبحانه وتعالى .

ليس هذا فقط بل إنه لعنة اللَّه عليه يعترف ويقول : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

أي : إنِّي كافر بما دعوتكم إليه ، لأنى أول من يعلم أن ما دعوتكم إليه زيف وكذب ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واتبعتم الزيف الَّذي قدمته لكم .

تطاير الكتب

يقول اللَّه تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ ﴾ [الانشقاق] .

إن الحساب اليسير الَّذي سيحاسب به بعض المؤمنين لا يعتبر حساباً ولكنه عرض لرحمة اللَّه ، وتوضيح لتجليات لطف اللَّه تعالى على المؤمنين ، كأن يقال للمؤمن أنت فعلت كذا وكذا، وقد غفر لك اللَّه ، ولكن الحساب الحقيقى الَّذي يحدث فيه نقاش ومحاسبة ، إنما معناه أن صاحبه مستحق للعقوبة ، أما الحساب الَّذي ليس فيه مناقشة فإنه يكون يسيراً ويكون كله ثواباً ورحمة ؛ كأن تقول لإنسان عزيز عليك أنت فعلت كذا وكذا ، من باب العتاب الَّذي ليس فيه غضب ولا تقريع بل فيه تسامح .

أما من حقّت عليه العقوبة من المؤمنين العاصين

أو غير المؤمنين ؛ فإنَّ حسابه يكون رهيباً ، والحساب يشتمل على ثلاثة أجزاء رئيسية ، جزء مدون فيه العمل الصالح للعبد ، وجزء مدون فيه المعاصي الَّتي ارتكبها العبد ، وجزء مدون فيه نعم اللَّه عليه ، لأنَّ النعمة تدخل في الحساب ، ونعم اللَّه عادة تجبُّ كل العمل الصالح ؛ فإذا حوسب العبد بعمله الصالح فقط دون رحمة اللَّه وفضله ، فإنَّ نعمة واحدة من النعم الَّتي أنعمها اللَّه عليه ترجح بكل العمل الصالح الَّذي قدمه في الدنيا [١] .

---

(١) أَخرجه البخاري [٤٦٨٥] ، ومسلم [٢٧٦٨/ ٥٢] عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : « يُدنِي المؤمن يوم القيامة حتَّى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول هل تعرف ؟ فيقول : ربِّ أعرفُ . قال : فإنِّي سترتها عليك في الدنيا وإنِّي أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على اللَّه » .

وفي رواية البخاري ، قال في آخره : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] .

ورواه ابن ماجه [١٨٣] ، وابن حبان في صحيحه [٧٣٥٥] .

وروى من حديث عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه=

= قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا كان يوم القيامة خلا اللَّه عز وجل بعبدِه المؤمن ، يوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ، ثم يغفر اللَّه له لا يطلِعُ على ذلك ملكٌ مقرب ، ولا نبيّ مرسل ، وستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها ، ثم يقول لسيئاته كونى حسنات »[١] .

وخرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلى في كتاب الديباج له ، عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : يدنى اللَّه العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه ، يستره من الخلائِق كلِّها ، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر ، فيقول له : اقرأ يا ابن آدم كتابك . قال : فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه .

قال : فيقول اللَّه تعالى له : أتعرف يا عبدى ؟

قال : فيقول : نعم يا رب أعرف .

قال : فيقول : إنِّي أَعْرِفُ بها منك ، قد غفرتها لك .

قال : فلا تزال حسنة تقبل فيسجد ، وسيئة تغفر فيسجد ، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك ، حتَّى ينادى الخلائق بعضُها بعضاً ؛ طوبى لهذا العبد الَّذي لم يعص قط ولا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين اللَّه تعالى مما قد وقفه عليه[٢] .

(١) ذكره القرطبي في التذكرة [١/ ٢٩٩] .

(٢) ذكره عبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد [ص : ٢١٥] .

ذرية الأنبياء والشهداء والصالحين

معلوم أن الأنبياء والشهداء لا حساب عليهم ، فالأنبياء معصومون من الذنوب ، والشهداء غُفرت لهم ذنوبهم ساعة استشهادهم ، ولذلك لا يحاسب الأنبياء والشهداء ، وعلى ذلك يكون سؤال الأنبياء في الآخرة هو عن تبليغ أممهم بالمنهج ، وهل بلّغوا رسالة اللَّه أم لم يبلّغوها ؟ وينتهي سؤالهم عند هذا الحد ، أما المؤمنون فإنهم يحاسبون حساباً يسيراً ، ولا يكون الحساب أكثر من عرض لرحمة اللَّه عليهم ، يقال لهم لقد فعلتم كذا وكذا ولكن اللَّه غفر لكم ، ولذلك تكون المناقشة معهم عرضاً لكرم اللَّه وفضله عليهم ، بل إن اللَّه سبحانه يضيف لهم من فضله فيلحق بهم ذرياتهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ [الطور : ٢١] .

إذن . . في ساعة الحساب يعطى المؤمنون من فضل اللَّه الكثير ، فإنَّ اللَّه بفضله يلحق هذه الذرية بآبائهم وأمهاتهم ، شريطة أن تكون تلك الذرية مؤمنة ، فالذرية لو لم تؤمن انفصلت عن العمل الصالح لآبائهم ، كما حدث بالنسبة لابن نوح عليه السلام ، فقد كفر ابن نوح ورفض الإيمان ، فأغرقه الطوفان مع الكافرين ، وعندما اتجه نوح إلى السماء طالباً نجاة ابنه وأن يلحق به ، قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] .

وهكذا انفصل الابن عن الأب النَّبيّ لأنَّه عمل غير صالح ، فالذرية المؤمنة يوم القيامة تلحق بآبائهم الصالحين ، فهذه ليست كرامة للذرية ، ولكنها كرامة للآباء الذين ألحقوا بهم ، وما دام الابن يشترك في الإيمان مع الأب فإنه يلحق بالأب الصالح ، ولو قصر به عمله عن رتبة أبيه ، وذلك لا يؤثر في منزلة الأب الصالح ولا ينقص من عمله شيئاً ، فإنَّ اللَّه تعالى لا يقسم عمل الأب الصالح على جزأين : جزء له ، وجزء لابنه ، بل يبقى عمل الأب الصالح تاماً وكاملاً ، ومنزلته كما هي ، ويلحق به الابن إكراماً له ولحسن إيمانه .

المسلم العاصي

إن المسلم العاصي هو الَّذي زادت سيئاته عن حسناته ، وهذا تنفعه شفاعة الشافعين بعد اللَّه تعالى ، وعلى رأسهم رسول اللَّه ﷺ حيث قال صلوات اللَّه وسلامه عليه : « شَفَاعَتى لأهل الكبائر من أُمَّتى »[١] ، وعلينا أن نعلم أن المشفوع له لا بدَّ وأن تكون له خصلة خير ، خصلة الخير هذه هي الَّتي توجب له شفاعة الشافعين[٢] ، لذلك يروي : « لا تحقرن طاعة

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٢١٣] ، والترمذي [٢٤٣٥] ، وأبو داود [٤٧٣٩] ، وابن ماجه [٤٣١٠] وغيرهم عن أنس رضي اللَّه تعالى عنه . وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥] .

(٢) روى ابن ماجه [٣٦٨٥] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُصفُّ الناس يوم القيامة صفوفاً » وقال ابن نمير : « أهل الجنة » « فيمر الرجل من أهل النار على الرجل من أهل الجنة ، فيقول : يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة ؟ قال : فيشفع له ، ويمر الرجل=

ما ، ولا تحقرن معصية ما فاللَّه أخفى ثلاثاً في ثلاث :

= فيقول : أما تذكر يوم ناولتك طهوراً ؟ فيشفع له » قال ابن نمير : « ويقول : يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك ؟ فيشفَع له » .
وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [٨٠٥] .
وروى الطبراني في الكبير [١٠/ ٢٠١/ ١٠٤٦٢] عن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [فاطر : ٣٠] ، قال : « أجورَهم : يدخلهم الجنة ، ويزيدهم من فضلِه : الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا » .
وذكر أبو جعفر الطحاوى عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا كان يومُ القيامة جمع اللَّه أهلَ الجنة صفوفاً وأهل النار صفوفاً ، فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة ، فيقول : يا فلان تذكر يوم اصطنعتُ معروفاً إليك ؟ فيقول اللَّهم إن هذا اصطنع إليَّ في الدنيا معروفاً . قال : فيقال له خذ بيده وأدخله الجنة برحمةِ اللَّه عز وجل .
وقال أنس رضي اللَّه عنه : أشهد أنى سمعت رسول اللَّه ﷺ يقوله .
وذكر القرطبي قال : قال أبو عبد اللَّه محمد بن ميسرة ، ورأيت في الكتاب الَّذي يقال إنه الزبور : « إنِّي أدعو عبادى الزاهدين يوم القيامة ، فأقول لهم عبادى إنِّي لم أزوِ عنكم الدنيا لهوانكم عليَّ ، ولكن أردت أن تستوفوا نصيبَكم موفوراً=

رضاه في طاعته ، وغضبه في معصيته ، وأسراره في خلقه »[1] . أي أن الإنسان لا يجب أن يحقر طاعة ما

= اليوم ، فتخللوا الصفوف ، فمن أحببتموه في الدنيا ، أو قضى لكم حاجة ، أو رَدّ عنكم غيبة أو أطعمكم لقمة ابتغاء وجهى وطلب مرضاتى ؛ فخذوا بيده وأدخلوه الجنة »

وذكر أبو حامد في آخر كتاب الإحياء ، قال أنس رضي اللَّه تعالى عنه : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يومَ القيامة على أهل النار فيناديه رجلٌ من أهل النار ، ويقول يا فلانُ هل تعرفنى ؟ فيقول لا واللَّه ما أعرفك ؛ من أنت ؟ فيقول أنا الَّذي مررت بي في الدنيا يوماً فاستسقيتني شربة ماء فسقيتُك . قال قد عرفت . قال : فاشفع لى بها عند ربك ، فيسأل اللَّه تعالى ويقول : إنِّي أشرفت على أهل النار ، فنادانى رجلٌ من أهلِها فقال : هل تعرفُنى ؛ فقلت : لا . من أنت ؟ قال : أنا الَّذي استسقيتني في الدنيا فسقيتُك فاشفع لى بها فشفعنى . فيشفعه اللَّه تعالى فيُؤمر به فيخرج من النار » . واللَّه تعالى أعلم .

التذكرة [٢/ ٤١، ٤٢] .

(١) ذكر البخاري في كتاب الرقاق [٨١] باب ما يتقى من محقرات الذنوب [٣٢] حديث [٦٤٩٢] عن أنس رضي اللَّه تعالى عنه قال : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، إن كنا لنعدها على عهد النَّبيّ ﷺ الموبقات » قال أبو عبد اللَّه : يعني بذلك المهلكات . قال ابن حجر في الفتح : « قوله : باب ما يتقى من محقرات الذنوب » التعبير=

فقد تكون هذه الطاعة البسيطة الَّتي لا يلقى إليها بالاً ولا يهتم بها ، هي السبب في دخوله الجنة ، لذلك إذا كانت هناك طاعة متاحة لك ، ولو كانت بسيطة ، فسارع في فعلها ، لأنَّها قد تكون هي الَّتي ستأتي لك بالرضا ، وقد أعطانا رسول اللَّه ﷺ مثلاً لذلك في قصة المرأة الَّتي سقت كلباً في يوم حر شديد ، فقد وجدت بئراً ونزلت وشربت منه ، وعندما صعدت وجدت كلباً

= بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب ؛ كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود حتَّى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه .

فتح الباري [١٣/ ١٢٨] .

وقال : أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال : إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ، وينسى المحقرات ، فيلقى اللَّه وقد أحاط به ، وإن الرجل ليعمل السيئة ، فلا يزال منها مشفقاً حتَّى يلقى اللَّه آمناً .

وحديث سهل رواه الطبراني في الصغير [٢/ ١٢٩/ ٩٠٤] ، والكبير [٦/ ١٦٥/ ٥٨٧٢] وبنحوه أحمد في المسند [١/ ٤٠٢] ، والبيهقي في الكبرى [١٠/ ١٨٧/ ٢٠٥٥١] عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده : صحيح .

يلهث من الحر والعطش ، فنزلت إلى البئر وملأت حذاءها ماء ثم صعدت وسقت الكلب حتَّى ارتوى فأدخلها اللَّه الجنة بهذا العمل[١] .

إذن . . مطلوب منا ألا نحقر أيَّ طاعة ولا نستصغر أو نستهين بأي معصية فقد تكون هي القشة الَّتي قصمت ظهر البعير ، فلا يحتقر إنسان معصية مهما كانت بسيطة ، فقد تؤدي به هذه المعصية إلى النار ، كما بين لنا الرسول الكريم ﷺ في قوله : « دَخلت امرأة النار في هِرَّة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشَاشِ الأرض »[٢] ، ولا يصح مطلقاً تحقير عبدٍ من عباد اللَّه بسبب مظهره ، أو بساطة مركزه الدنيوي ، لأنك لا تعرف ما السر الَّذي أخفاه اللَّه فيه ، ولا المنزلة الَّتي لهذا العبد عند ربه ، فقد يكون مستجاب الدعوة ، فيقبل اللَّه دعوته فيك .

---

(١) أخرج البخاري [٣٣٢١] ، ومسلم [٢٢٤٥/ ١٥٥] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش . إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به ، فسقته إياهُ فغفر لها به » .

(٢) أخرجه البخاري [٣٣١٨] واللفظ له ، ومسلم [٢٢٤٢/ ١٥١] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما .

واعلموا أن اللَّه تعالى لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم[١] .

(١) أخرج مسلم [٢٥٦٤/ ٣٣] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال :
قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

الحساب

الحساب

الحساب أشكاله متعددة ومشاهده كثيرة ، ولكن حساب المؤمن ستر ، أي يكون مستوراً بينه وبين ربه ، وحساب الكافر فضيحة ، أي يكون على رؤوس الأشهاد جميعاً ، ويرى الناس ؛ كل الناس الهوان والذل الَّذي يصيب الكفار وكيف ينزعون من أماكنهم ، وكيف يُهانون ويُجرّون على وجوههم .

وبعض الناس يتساءل : بأي لغة سيكون الحساب ؟ مع أن لغات الناس مختلفة في العصر الواحد فكيف بها من عهد آدم حتَّى يوم القيامة ؟

نقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى سيخاطبنا بلغة نفهمها جميعاً من عهد آدم إلى يوم القيامة ، واللَّه قادر على ذلك كما هو قادر على أن يجعلنا نفهم لغة أيدينا ولغة الجماد ولغة الملائكة ، كل خلق اللَّه في ذلك اليوم سيتحدثون لغة واحدة ، فاللَّه سبحانه وتعالى هو الَّذي علم الإنسان اللغة قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

ومن العجيب أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتعلم إلا إذا بدأ تعليمه بالأسماء ولذلك في كل أنحاء العالم عندما يبدأون تعليم الطفل الصغير ؛ يعلمونه الأسماء ، فيقولون هذا كوب ، وهذا بحر ، وهذا جبل ، وهذه مائدة إلى آخر ذلك ، وبدون هذا التعليم الَّذي أعطاه اللَّه لآدم ، لا يمكن أن يتعلم طفل شيئاً وأول لغة في العالم هي الَّتي علمها اللَّه سبحانه لآدم ، لأنَّ اللغة تُسمع ولا تورث ، ولذلك كما قلنا من قبل ، إنك إذا أتيت بطفل إنجليزي وربيته في بيئة عربية فإنه يتكلم العربية ، وإذا أخذت طفلاً عربياً ووضعته في بيئة إنجليزية فهو يتكلم الإنجليزية .

إذن . . فلا بدَّ أن آدم سمع من اللَّه قبل أن يتكلم ، أي أن اللَّه سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على التعبير ، ولذلك في يوم القيامة تختفى اللغات كلها ولا تبقى إلا لغة واحدة يعلمها اللَّه للخلق فيتحدثون جميعاً بها ، حتَّى يعلم الكل كلام الكل ، كما أن هذه اللغة سيكلمنا اللَّه تعالى بها . واسمع لقول رسول اللَّه ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه اللَّه يوم القيامة ليس بينَه وبينه ترجمان »[١] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٦٥٣٩] ، ومسلم [٦٧/١٠١٦] ولفظه : عن عدى بن حاتم رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول=

وروي أن اللَّه تعالى يقول له : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغُكَ ؟

فيقول : بلى .

فيقول اللَّه : ألم أعطك مالاً وولداً وفضلاً ؟

فيقول : بلى .

فيقول : أَلَمْ أكرمكَ وأسَوِّدْكَ وأزوجْكَ وأُسَخِّرْ لك الخيل والإبل ؟

= اللَّه ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه اللَّه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة » . ورواه الترمذي [٢٤١٥] ، وأحمد في المسند [٤/ ٣٧٧] ، وابن حبان في صحيحه [٧٣٧٣] ، والطبراني في الكبير [١٧/ ٨٢/ ١٨٤] .

وروى الترمذي [٢٤٢٧] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَجٌ فيوقف بين يدى اللَّه تعالى ، فيقول اللَّه له : أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك . . فماذا صنعت ؟ فيقول يا ربِّ جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان ، فارجعنى آتك به . فيقول له : أرنى ما قدمت ، فيقول : يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان فارجعنى آتك به كله ، فإذا عبد لم يُقدِّم خيراً فَيُمْضَي به إلى النار » .

وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٤٢٧] .

فيقول : بلى .

فيقول اللَّه : أفظننت أنك مُلاقِيَّ ؟

فيقول : لا .

فينظر عن يمينه فلا يَرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يَرَى إلا جهنم . فيستغيث بربه ، فيقول له اللَّه : اليوم أنساك كما نسيتني .

ثم يُقال للكافر : الآن نبعث شاهدنا عليك . فينظر يميناً فلا يرى أحداً ، ويساراً فلا يرى أحداً . فيتفكر في نفسه : من ذا الَّذي سيشهد عليه . فيختم على فيه ، ويقال ليديه ورجليه ولحمه وعظمه : انطقي فتنطق بعمله » [(١)] .

---

(١) أخرج مسلم [٢٩٦٨/ ١٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : قالوا : يا رسول اللَّه ! هل نَرَى رَبَّنَا يوم القيامة ؟ قال : « هل تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الشمس في الظهيرة ، ليست في سَحَابَةٍ ؟ » .

قالوا : لا .

قال : « فهل تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ القمر ليلة البدر ، ليس في سحابة ؟ » .

قالوا : لا .

قال : « فَوَالَّذي نفسي بيده لا تُضَارُّونَ في رؤية ربكم إلا كما تُضارون في رؤية أحدهما » . =

= قال فيَلْقَي العبد فيقول : أي فُلْ ! ألم أُكْرِمْكَ ، وأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لك الخيل والإبل ، وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَع ؟
فيقول : بلى .
قال فيقول : أفظننتَ أنك مُلاَقِيَّ ؟
فيقول : لا .
فيقول : فإنِّي أنساك كما نسيتني . ثم يَلْقَي الثاني فيقول : أي فُلْ ! ألم أُكْرِمْكَ ، وأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لك الخيل والإبل ، وأذرك تَرْأَسُ وتَرْبَع ؟
فيقول : بلى . أي رَبِّ !
فيقول : أفظننتَ أنك مُلاَقِيَّ ؟
فيقول : لا .
فيقول : فإنِّي أنساك كما نسيتني .
ثم يَلْقَي الثالث فيقول له مثل ذلك .
فيقول : يا رب ! آمنتُ بك وبكتابك وبرُسُلِكَ وصَلَّيتُ وصمت وتصدقت .
ويُثْنِي بخير ما استطاع فيقول : هَهُنَا إذاً .
قال ثم يقال له : الآن نبعثُ شاهِدَنَا عليك . ويتفكر في نفسه . مَنْ ذا الَّذي يشهدُ عليَّ . فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى . فتنطق فَخِذُهُ ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ .
وذلك المنافق ، وذلك الَّذي يَسْخَطُ اللَّه عليه » .

أول ما يحاسب عليه العبد

أول ما يحاسب عليه العبد هو إيمانه باللَّه ، فإنْ كان قد آمن ، يبدأ الحساب على تنفيذ متطلبات الإيمان ، وأول متطلبات الإيمان هي الصلاة ، ذلك هو المطلوب الدائم من العبد ، الَّذي لا يسقط أبداً ، فالصلاة قائمة دائمة لا تسقط ، فالحج يسقط بعدم الاستطاعة صحياً أو مادياً ، والصوم يسقط بالمرض والسفر ، والزكاة تسقط بعدم وجود المال ، ومعلوم أن كلمة التوحيد الَّتي هي : شهادة أن لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ، تُقال مرة واحدة في بداية دخول العبد في الإيمان ، وإن كان يستحب ذكرها بعد ذلك كنوع من العبادة وتجديد الإيمان ، ولكن الصلاة لا تسقط عن الإنسان مريضاً كان أو سليماً ، غنياً كان أو فقيراً ، مسافراً كان أو مقيماً في مكانه ، فهي المطلوب الدائم للإيمان ، ولذلك إذا صلحت الصلاة صلح عمل العبد[1] .

---

(١) روى مالك عن يحيى بن سعيد قال: «بلغني أن أول ما ينظر فيه=

ويوم القيامة كما يكون هناك حساب على حقوق

= من عمل المرء الصلاة فإنْ قُبلت منه ، نظر فيما بقى من عمله ، وإن لم تقبل منه لم ينظر في شيء من عمله .
وروى أبو داود [٨٦٤] ، وأحمد في المسند [٢/ ٤٢٥] ، والحاكم في المستدرك [١/ ٢٦٢] ، والبيهقى في الكبرى [٢/ ٣٨٦/ ٣٨١٣] مرفوعاً بهذا المعنى عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن النَّبيّ ﷺ قال : « أول ما يُحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة . قال : يقول ربُّنا عز وجل لملائكته : « انظروا في صلاة عبدى أتمَّها أم نقصها ، فإنَّ كانت تامةً كُتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ، فإنْ كان له تطوعٌ ، قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم » .
وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٧٠] . قال أبو عمر بن عبد البر رحمه اللَّه : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون ذلك - واللَّه أعلم - فيمن سها عن فريضة فلم يأتِ بها ، أو لم يحسن ركوعَها وسجودها ، ولم يدر قدر ذلك . وأما من تعمد تركها أو شيئاً منها ثم ذكرها فلم يأت بها عامداً ، واشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه ، واللَّه أعلم .
وأخرج البخاري [٦٨٦٤] ، ومسلم [١٦٧٨/ ٢٨] والترمذي [١٣٩٧] ، وابن ماجه [٢٦١٥] عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » . =

اللَّه ، يكون هناك حساب على حقوق العباد ، وإذا كان الحساب على حقوق اللَّه هو على المعاصي وعلى مخالفة منهج اللَّه ، فالحساب على حقوق العباد يكون على ظلم الناس في الدنيا ، والاعتداء على حقوقهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم . . . إلخ .

وعلى كل مسلم أن يؤدي ما عليه للناس قبل ذلك اليوم ، حيث لا درهم فيه ولا دينار ، ليس فيه سوى حسنات وسيئات[(١)] .

= وروى النسائي في الكبرى [٢/ ٢٨٥/ ٣٤٥٣] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة ، وأول ما يقضى بين الناس الدماء » .

(١) أخرج مسلم [٢٥٨٢/ ٦٠] والترمذي [٢٤٢٠] ، وأحمد في المسند [٢/ ٢٣٥] والبيهقي في الكبرى [٦/ ٩٣/ ١١٢٨٥] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتَّى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وأخرج البخاري [٢٤٤٩] ، وأحمد في المسند [٢/ ٥٠٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه من عرضِه أو شيء فليتحللَّه منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ=

وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « أتدْرُونَ مَا المُفْلِسُ ؟ » .

= منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » .

وروى ابن ماجه [٢٤١٤] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « من مات وعليه دينارٌ أو درهم قضى من حسناته ليس ثَمَّ دينار ولا درهم » . وقال الألباني في صحيح ابن ماجه [١٩٥٨] : صحيح .

وذكر الحارث بن أبي أسامة عن عبد اللَّه بن أنيس رضي اللَّه تعالى عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يحشر اللَّه العبادَ أو قال الناسَ - شك - وأومأ بيده إلى الشامِ عراةً غُرْلاً بُهماً »

قال : ما بُهماً ؟

قال : « ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتَّى اللطمةَ ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النارَ وواحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتَّى اللطمة » .

قال : قلنا : كيف وإنما نأتي للَّه عراةً حفاةً .

قال : « بالحسنات والسيئات » .

قال القرطبي في التذكرة [١/ ٣٠٦] : هذا الحديث الَّذي أراد البخاري بقوله : ورحل جابر بن عبد اللَّه مسيرة شهر إلى عبد=

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

= اللَّه بن أنيْس في حديث واحد[١] .
وذكر سفيان بن عيينة عن مسعر عن عمرو بن مرة قال : سمعت الشعبي يقول : حدثنى الربيع بن خيثم وكان من معادن الصدق ، قال : إن أهل الدَّين في الآخرة أشد تقاضياً له منكم في الدنيا ، يحبس لهم فيأخذونه . فيقول : يا رب ألست ترانى حافياً ؟ فيقول خذوا من حسناته بقدر الَّذي لهم فإنَّ لم يكن له حسنات يقول : زيدوا على سيئاته من سيئاتهم[٢] .
وروى أبو داود [٣٣٤١] من حديث سمرة رضي اللَّه تعالى عنه وفيه : « . . . إن صاحبكم مأسور بدينه . . . » وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٢٨٥٨] ، وروى البغوى [٢١٤٨] ، والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد [٤/ ١٢٩] من حديث البراء بن عازب رضي اللَّه تعالى عنه ، أن النَّبيّ ﷺ قال : « صاحبُ الدَّين مأسورٌ يومَ القيامة بالدين » .
وروى أبو نعيم الحافظ بإسناده عن زاذان أبي عمر قال : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخز واليمنة قد سبقونى إلى المجلس ، فقلت يا عبد اللَّه من أجل أنى رجل أعجمى أدنيت هؤلاء وأقصيتني ، قال : ادن فدنوت حتَّى ما=

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد [٩٧٠] ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد [٧٤٦] ، وذكره في الصحيح تعليقاً [١٥/ ٤١٩ فتح] حديث رقم [٤٧٨١] .
(٢) ذكره في البدور السافرة [ص : ٢٨٧] ، نقلاً عن أبي نُعيم .

فقال : « إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة

= كان بيني وبينه جليس ، فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأمة فيُنصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة بأن يُدَوَّنَ لها الحق على ابنها أو أختها أو أبيها أو على زوجها ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ، فيقول الرب تعالى للعبد : ائت هؤلاء حقهم .

فيقول : يا رب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم ؟ فيقول للملائكة : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته .

فإنْ كان ولياً للَّه فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ، ضاعفها حتَّى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] . وإن كان عبداً شقياً ، قالت الملائكة : رب فنيت حسناته وبقى طالبون ، فيقول للملائكة : خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار[١] .

وعنه عن ابن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه قال : سمعت رسول=

(١) رواه المروزي في الزهد [ص : ٤٩٧] ، وابن أبي الدنيا في الأهوال [٢٦٠] ، وابن جرير في تفسيره [٥/ ٥٧، ٥٨] وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير [١/ ٤٩٧] وقال ابن كثير : ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح ، وهو موقوف ، ورجال إسناده موثقون .

وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل

= اللَّه ﷺ يقول : « إنه ليكون للوالدين على ولدِهما دين ، فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به ، فيقول أنا ولدكما فيودان أو يتمنيان لو كان أكثرَ من ذلك »[١] .

وروى رزين عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال : كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه ، فيقول : ما لَك إليَّ وما بيني وبينك معرفة ؟ فيقول كنت ترانى على الخطايا وعلى المنكر ولا تنهانى[٢] .

وروى ابن ماجه [٤٠١٠] عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه قال : « لما رجعت إلى رسول اللَّه ﷺ مهاجرةُ البحر ، قال : ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتية منهم : بلى يا رسول اللَّه ، بينا نحن جلوس ، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم . فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها ، فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غُدَرُ إذا وضع اللَّه الكرسى ، وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ؛ فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غداً ؟ قال : يقول رسول =

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٣٥٥] وقال : رواه الطبراني عن عمرو بن مخلد عن زكريا الأنصاري ولم أعرفهما ، وبقية رجاله وثقوا على ضعف بعضهم .

(٢) ذكره في البدور السافرة [ص : ٢٩١] نقلاً عن رزين .

مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإنَّ فنيت حسناتُه قبل أن يُقْضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم ، فطرحت عليه ثم طُرح في النار »[(١)] .

وذلك يعني : أن المفلس هو الَّذي يُذهب طيباته بالاعتداء على الناس .

= اللَّه ﷺ : صدقتْ صدقتْ كيف يُقدِّس اللَّه أمةً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟ » وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٢٣٩] .

(١) أخرجه مسلم [٢٥٨١/ ٥٩] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه .

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر ٥

مشاهد يوم القيامة

يوم القيامة ٩
الآخرة خير وأبقى ١٢
مصير العلماء غير المؤمنين يوم القيامة ١٦
اليقين بالآخرة ركن الإيمان ٢٤
معنى الساعة ٢٦
متى الساعة ؟! ٣٠

النفخ في الصور

النفخ في الصور ٤١
النفخ في الصور في القرآن الكريم ٤٨
حديث جامع في النفخ في الصور والبعث والنشور ٥١

يوم البعث

البعث ٦٧

صفة يوم البعث ! ٧٦
الدهريون . . منكرو البعث ٨١

الحشر وأرض المعاد

يوم الحشر ٨٧
أرض المعاد ٩٥

مشاهد وصور

الزلزلة ١٠٣
فرار المرء من أقرب الناس إليه ١٠٦
أصدقاء الأمس . . أعداء اليوم ! ١٠٨
نور المؤمنين يوم القيامة ١١٠
يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ١١٩
المضلون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ١٢٦
البراءة من الشرك ١٢٩
براءة الملائكة ١٣١
براءة الكواكب والجماد ١٣٢
براءة الرسل عليهم صلوات اللّه وسلامه ١٣٧
إبليس اللعين يحاول التنصل من جريمته ! ١٣٩
حشر الذين أشركوا وشركاؤهم ١٤٢
حشر الذين ظلموا وأزواجهم ١٤٤

شهادة عيسى عليه السلام على قومه وأتباعه ١٤٨
شهادة الأنبياء والمرسلين على أممهم ١٥٦
تمنِّي الكافر والعاصي أن تُسوّى بهم الأرض ١٦٣
شهادة أعضاء الإنسان عليه ١٦٨
سؤال الكفار والمشركين ١٧٦
المواجهة والخصومة ١٨٣
اجتماع حول جهنم ١٩٦
تزييف الحق وتزيين الباطل ٢٠٠
حوار الضعفاء . . والمستكبرين ٢٠٣
الشيطان خطيباً ! ٢١١
تطاير الكتب ٢١٩
ذرية الأنبياء والشهداء والصالحين ٢٢٢
المسلم العاصي ٢٢٤

الحساب

الحساب ٢٣٣
أول ما يحاسب عليه العبد ٢٣٨
فهرس المحتويات ٢٤٦